أولادنا

جليلة وحسان اليمانى



بقلم
عبد التواب يوسف

دار المعارف

أولادنا

(٤٢)

جليلة وحسان اليمانى

بقلم

عبد التواب يوسف

دار المعارف

الرسوم الداخلية والغلاف : محمود عزب.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

«السِّيَرُ» العربيةُ، فنٌّ فريدٌ، ليسَ لهُ منْ مَثيل في كلِّ آداب الدنيا، لذلك عَرفَه العَالمُ بنفْس اسمه الأصيلِ الخالدِ.. ونحنُ لمْ نَستفدْ منها بقدر كافٍ، ولم نَستثمرْ هذا التراثَ الثريَّ بشكل نَرْضَى عنْه روائيا.. وهَذِه محاوَلةٌ منْ بيْن المحاولاتِ التى قمتُ بها لإعادةِ صِياغةِ جَانبٍ منْ سِيرةِ الزير سالم، إضافةً لما قدمناهُ منْ قبلُ من سيرةِ الهلالية، وعنترة، والأميرة ذات الهمة، وسيف بن ذى يزن، وغيرها.. وكل ذلك بهدفِ تَقْديم هذِه السِّير بشكل عصْرى للناشئين والشباب الصَّغير، من أجلِ إثارة اهتمامهم بهذا الفن العريق، الذى تجاوزت روعةُ الملاحمَ الأوربية التى تمت صياغاتٌ عديدةٌ لها لمختلف الأعمار..

وكانت هذه السِّير عبارة عنْ نضالنا العربى ضد أقوامٍ رغبُوا فى الاعتداءِ عَلَى وطننَا وقومنا.. إن سيرةَ حمزة العرب كانت ردًّا عَلَى حمزةِ البهلوان، الفارسية الأصل، كما أنَّ عَلى الزيبق كشف عنْ براعةِ العربِ فى فن الحيلةِ والتخلص منَ المآزقِ، وتفَوقَ فيها الزيبقُ عَلَى نظيره العجمى.. وكان سيف بن ذى يزن فى مواجهة ما بين العَرب والأحباش الَذين احتلُّوا اليمنَ، وطردوا منها، كما أنَّ الظاهرَ بيبرس كان رمزا لانتصار العَرَبِ على الصليبيين والمغُول..

لقد فَتَحَ لنا د. عبد الحميد يونس، ود. سهير القلماوى، ود.عز الدين إسماعيل، ود. نبيلة إبراهيم، ود. أحمد مرسى، وصفوت كمال، وفاروق خورشيد، وإبراهيم شعراوى أوسع الأبوابِ مِن أجلِ أن

ندْخُلَ منــها إلى أدبنـا الشـعبى عامـة ، ونتلمـذ علـى أيديـهم الكثـير، لكى لا نسقط فى هوةِ الإساءةِ إلى هـذا الأدب الرفيـع المسـتوى، وأبـدو الكثيرَ من الرضا والتشجيع لنا عَلَى ما قدمْنا مــن دراســاتٍ حـولَ هـذا الأدب، وما صُغْناه منه عبر السنوات الماضيـة، ومـا بذلنـاه مـن جـهدٍ لنستقى منـه إبداعـاتٍ جديـدة، تمشــيا معــه، أو اعتراضــا عليــه، أو تفجيرا له.. لذلك أهديها إليهم راجيًا تقبلها.

وبودِّى أنْ أعترفَ أنى أقتربُ منَ الأدب الشعبى فى وَجـل وخـوفٍ مـن أسـاتذتى الأجـلاء، وهـم يُسـاندونى، لأنـهم يــروْنَ أن نصوصَــهُ محفُوظـةٌ للتـاريخ، وللدراسـاتِ الأدبيـة والاجتماعيـة، لكنـها ليسـت (مقدسة)، وحينَ نَستوحيها لن يغَير منها ذلك شيئًا ولن نسيء إليـها، فمـنْ نكون نَحنُ وقد غالبت الزمنَ عدة قرون وصمدَت له، وبقيتْ شـامخةً، ونَحنُ مهمَا بذلنا منْ جُهدٍ فلن نطاولهَا قامةً، وكل ما نفعلُه أنْ نسـعى إلى نبعِهَا الفياض، نَمـلأُ منـها بعـضَ أكـواب تَـأمل أن تكـون سـائغةً للشاربين.. إننا نقترب منها، ونَحنُ رافعُو الأيـدى إلى الجبـاة، تحيـة لها، ولحفَّاظِها ورواتهَا عَلى الربابةِ، وإعـادة طباعتِـهَا ذخـرًا، وكـنزًا للأجيال المقبلَةِ.

عبد التواب يوسف

– ١ –

دَقَتْ طُبولُ الحربِ النحاسيَّةِ، واهتَزَّ كُلُّ ما فى اليَمن.. وكَانَ المِلكُ حَسَّانُ اليمَانِي يجتمعُ فى هَذِه اللَّحْظَةَ مَعَ بَعْض مِنْ وُزَرائِه، وفزِعَ وَزِيرُ الزرْع والسُّدُود والخضْرة، وارتفعَ صوْتُه علَى هذِه الدقاتِ العَاليةِ..

– هَلْ مِنْ حَرْب جديدة يا موْلاَى؟

– نعَم.. أنت تسمع طبولهَا النحاسيَّة التى يدقُّهَا عشرة مِن العَبيدِ!

– مَا نَكادُ ننتَهِى مِنْ حرْبٍ حَتَّى نبدَأ أخْرى؟

– أريدُ أنْ أحكمَ العَالمَ بحكْمَتِى.

– الأمرُ لَكَ يا سَيِّدِى..

– وأرَغبُ فى أنْ تَسيرَ سيرتى فى كلِّ ممَالِكِ الدُّنيا..

– كُل الدُّنْيَا تَعرفُك وتَرهبُكَ يا موْلاَى..

– أريدُ أن أصِلَ فى هَذِه المرَّةِ إلى حُدُود الرُّوم.

– الرُّوم؟! إنَّ أرْضَهُم بعْدَ بلادِ الشام..

– نعَم، لِذَلكَ سأغزُو ربيعة ومُرَّة؟

– إنهم عربُ بنِى قيْس..

– أعرفُ..



قَالَ الوزِيرُ الهَادِى وهُوَ يُغادِرُ المكانَ..

– ما الَّذى يُغرينا نَحنُ العرَبَ بعضُنَا ببعْضٍ؟! نُرِيدُ للسَّلاَمِ أن يمتد بيْنَنَا وبيْن أهلِنَا فى الشمالِ لننعَمَ بالزرْعِ والخُضْرةِ؟

لَمْ يسمعْه التبعُ حسَّانَ - كَانَ هَذَا لَقبه الملكى مثل كسْرى فى بلادِ الفُرسِ، وقيْصر الرُّومِ، وفرعَوْن مِصْر. لقْد كانَ يُلقى بأوامره إلى أمير الجيوش بأن يَزحفَ بقواتهِ الكثيفَة، ويجتاز الجزيرَةَ العربية، ويجتاحَ بلادَ الشام مدينة الزِّير سالم إلى تُخُومِ أرضِ الرُّوم فى آسيا الصُّغرى، أو تركيا الآن..

قال التبعُ حسَّان..

– أريدُكَ أنْ تضمَّ الفرسانَ مِنْ كلِّ أرض تمرُّ بهَا، وأن تلحقَهمْ بجيشِكَ علَى أنْ يكونَ له: قلبُ.. هو قلبُ أسَد، وتكون لَهُ ميْمَنة وميْسَرة، ولنْ تواجهَك أيةُ متاعبِ، فإنَّ اسم (التبابعَة) يملأ النفوسَ بالخوفِ والفزَع، وسَوفَ تستسْلمُ لك المدنُ والقرَى أثناءَ زحفِكم، وأريدُ أن تردَ إلىَّ أخبارُ الانتصارَات، واحدًا بعدَ الآخَر.. وعَليكَ أنْ ترسلَ إلىَّ الغنائمِ واحدَةً بعدَ الأخرى، وعِندمَا يَستقرُّ بِكَ الحالُ هُنَاكَ سَوفَ أوافيكُمْ فى تلك البلادِ الَّتِى يقولُون إنهَا جنةُ اللهِ فى أرضِه.. وإنْ كانت لا تُضاهِى اليمنَ بالطبْع.. بمَا اسْتقرَّ عليْهِ رأْيى والآنَ، قُمْ.. سِرْ، تصحبُكم رعَاية التبعِ (حَسَّان اليمانى)، وبنِى مُضَر. قام أميرُ الجيوشِ، وانحنَى أمامَ مَلِيكه، ومَضى إلى حَيثُ تجمعتِ الجنُود،

والفرسَان، وامتطى حصَانهُ الأبيَض، وَوضع الريشةَ في عمَامَتِه، وسَـارَ عَلَى رأسِ جَحَافِله، يقتلُ مَنْ يَعترضُ طريقَهُ، ويَنهبُ المـدنَ والقُرى، لذلكَ كـانت القبائلُ تـهربُ إلى الصَّحَـارى والجبـال خوفًـا مـنْ قـوةِ الجيوشِ وسطْوَتها..

وعِندَمَـا اقْـتربَت الجيـوشُ مـن عاصمـةِ (بنـي قيـس) عَلـم هـؤلاء بقدومِـها، واجتمـعَ الشـقيقان ربيعَـةُ ومُـرَّة، ليَبْحثـا أمـرَ هَـذا الغـزو الرهِيب.. وكان مِنْ رأى (مُرَّة) أن يُهادِنُوا، هؤلاءِ القادِمين، إذْ لا قدرةَ لهُـم عَلَـى محاربـةِ جيشِ حسَّـانَ اليمـانى الـذى كـانَ قـد وصَـلَ إلى أرْضِهما، ولحقَ بجنودهِ.. لكنَّ (ربيعة) العَنيفَ رَفضَ ذلك رفضًا باتًّـا، وقررَ أنْ يخوض حَرْبًا ضَروسًا ضدَّ الغُزاةِ، وكانَ أنْ لقِيَ هزيمةً مروِّعَةً، وفقدَ عرشَه وحيَاته، وخلَّف ابنه (كليب) يتيما، في رعايةِ عَمِّه (مُرَّة) الـذى رأى أنَّ الحـربَ لـنْ تجـدِى ولـنْ تفيـدَ، وأنـه خـيرٌ لَـه أنْ يُجارى حَسَّانَ اليمانى، الَّذى رضى عنه، وأقطعَه وقومـه أرضَ لبنـان وبيروت، وبعْلبَك، والبقاع.. شَريطةَ ألاَّ يتجمعُوا ويتـآمروا، وسَاعتها لنْ يرْحمهُم التبعُ اليمانى حسان الَّذى صَار يَحكُم اليمـنَ، والجزيـرةَ، والشامَ والعِرَاق!

- ٢ -

قَدِمَ (كليب) لزيارة عمّه (مُرّة) وسألَه:

- ما العملُ يا عمّاه؟ وإلى مَتَى يَستمرُّ سُكُوتنا؟

قَالَ (مُرَّةُ) : يا كليب، مَا في يدنا غيرُ الصّبر.

- هَو حيلةُ العَاجزين!

- فلنعترفْ بالعجْز..

- وأنسَى الثأرَ لأبى؟

- مَا مِنْ أحدٍ يُطالبُك بذلِك..

- لابدَّ لِي وأنْ أقاتلَ حسّان اليماني..

- وأنتَ علَى مَا أنتَ منْ ضعْف، وهوَ على ما هُو مِنْ قُوَّة؟

- لا تُلْقِ بنفسِكَ إلى التهلُكة..

- أنا غيرُ قادر عَلَى أن أرفعَ رأسْى بينَ النَّاسِ.

- مِنَ الأفضَل لك أنْ تبقَى رأسُك بيْنَ كتفيك، لتُفكرَ بهَا.. بدلاً من أن تطيرها سيوفُ التبعِ!

تنهدَ كُليب، عَقله يتقبلُ مَا يقولُ به عمـه، وثـورةُ الغضَـبِ تجعلـهُ لا يطيقُ هذَا الّذى يَسْمَعه.. وبعْدَ فترةِ صمْتٍ لمْ تَطلْ قالَ العم..

– عيونُ اليمانى ترصدُنَا، وتحيـطُ بنـا، وتَنقـلُ إليـه كـلَّ مَـا يَـدورُ بيننا، والحكمةُ تنَاشِدنا أنْ نبقـى علـى حياتِنـا حَتَّـى تُواتينـا الفرصَـةُ للانتقام، وأيضا لاستردَادِ مَا ضَاع..

عَقَّبَ كلَيْب: مَا ضاعَ بالقوةِ لا يَستردُ بغيْر القوةِ..

– وبالحيلةِ أيضًا، وكم هَزمت مِنْ بطشٍ وجبروت!

وعَادَ الصمتُ يُخيمُ عَلَى المكانِ، وما لَبثَ كُليب أنْ قَالَ:

– ومَاذا عَنْ (جليلة) يَا عمّاه؟

– هِيَ بخيْر.. ولَكَ أنْ تلْقاهَا إنْ شئتَ.

– لا أستطيعُ ذَلِكَ، وأنا عَلَى هذِه الحالةِ اليائسةِ.

– لا حياةَ مع اليأسِ ولا يأسَ مع الحياة..

– كُنَا نأملُ أن نتزوج قبْل أنْ ..

قَاطعَه (مُرة) فى حَسْمٍ: هل نَسـتطيعُ فـى ظُروفِنَـا أنْ نقيـمَ أفراحًـا يا كليب؟!

– كلُّ مَا نقدرُ عليْه أنْ نحاولَ نَفْضَ بعْضَ أحزانِنا..

– ضَع (الزمن) فى حساباتِك..

هَمَّ كليب بمغادرةِ المكان، ودعَاهُ عمُّه إلى أن يبقى لكَيْ يتنَاولَ طعامَ الغذاءِ، لكنه اعتذَرَ ومضى مُنكسَ الرأس غيرَ قادرٍ عَلَى أن يُوسع مِنْ خُطاه، أو يَصلُبَ طوله، إذ تقوسَ ظهرُه، وسارَ وكأنه يَحمل منْ فوقه أثقالاً وجبالاً.. وتركَ عَمَّه، والدمُوع تَطفرُ من عَينيه.. ودَخلت جَليلةُ بعْدَ قليلٍ، وحَاول أن يَخفى عنها دُموعَه، ولم يَستطعْ.. قَالت لَهُ..

- الدموعُ لا تُجدِي يا أبتاه.

- أعلم ذلِكَ يَقينًا يَا بُنيتى..

- نقلوا إلىَّ نبأ قُدومِ كُليب، لماذا انصرفَ سَريعًا؟

- سألته الصبرَ وهوَ لاَ يطيقه..

- لقد هدَّه الحزنُ عَلَى وفاةِ أبيه.

- ومَعَ ذلِكَ فَقد أشارَ إلى.. إلى زوَاجكُما!

- مَاذا؟! كَيف يُفكرُ في شيءٍ منْ هَذَا القبيلِ؟

(هَل فَقدَ صَوابَهُ؟!).

- هوَ لم يُطالب بذلكَ، بلْ لمْ يَجد لَديْه الشجاعةَ لكى يَلقاك ويواجهك..

- لنْ ألومَه، إننى أقدرُ ظروفَه.. ولكننى لنْ أتزوجَه إذا هُوَ لمْ يثأرْ لأبيه.

- إنَّ غدًا لنَاظره قَريب..

- هل آتيك بشيء منَ الطعامِ؟

– ليسَ لهُ في فمِي طعْم..

غادرتْ جَليلةُ أباهَا وهي تُخفي أسَاهَا ودُموعـهَا.. عَلـى الرغـمِ مـن أنها مَا كانت تَدري بما تخفيه لَهَا الأيامُ وما كَـانت تَتوقـعُ المزيـدَ مـن الآلامِ.. لقد فقَد أبوهَا مجـدَه، وفَقـدَ أرضَـه، وفَقـدَ شـقَيقَه.. هَـل مـن الممكن أنْ يكونَ هُناك المزيد؟!.. مَاذا بَقي لدَيْـه؟! هـل يتركُـه حسَّـانُ اليماني لأحْزانِه وآلامِه، أم يتمادَى في اذلاَله وإهَانته؟!..

فلْينتظِرْ مَا تسْفِرُ عَنْهُ الأيام..

استقرّ التبعُ حسَّان اليمانى عَلَى عرشِ العربِ.. وكَانَ مطرزًا بـاللُّؤْلُؤ والياقوتِ، ويَقفُ من ورائه الحراسُ بسيُوفهم اللاَّمعة، والخدم بمَراوحهم من ريشِ النعامِ، ويَجلسُ من أمامِه الحاشيةُ، والوزراءُ، وسألَهُم:

- لقَدْ حَللنا هَذِه الأرْض، ولم أسْمعْ منكُم أسماءَ نسَائِها الجميلاَت، الذكيَّات..

بدأت الحاشية، واحدًا بعْد الآخر، يَذكُرُ اسمًا.. اسمًا إلى أن هتَفَ أحدُهم..

- أذكَى، وأجملَ، وأروعَ نساءِ هَذِه البلاد إنَّمَا هِيَ (جليلة) بنتُ (مُرَّة).

وهُنَا ارتفعتَ الأصواتُ تُؤكدُ مَا قَالَهُ، لَكنه أضافَ..

- غيرَ أنَّ جَليلةَ مخطوبةٌ لابنِ عمهَا..

صَاحَ حسْانُ التبع:

- من يكون عمهَا هَذَا؟ وابنه؟

– عمها رَبيعةُ الَّذى أمرْتَ يا مولاَى بقَتْله..

أما ولده فاسمه كُليب!

عَقَّب المِلكُ: هذا لاَ يحولُ بيْنى وبينها.. أى شَرفٍ لبنى قَيْس أن تتزوجَ ابنتهم جليلة منْ ملك اليمن والجزيرةِ والشامِ والعراقِ.. أوفِدوا إلى أبيها يُرسلُ بهَا إلينا..

تَبادلَ الحَاضرُون النظراتِ فى قَلق..

– لماذَا كُلُّ هَذَا التَجبُّر؟.. لقد قَتلَ عمهَا، واستُولِىَ عَلى بلادِه، ويُريدُ أن ينتزعَها منْ خَطيبها كليب.. أليس ذلِكَ كثيرا؟! كيفَ تتقبله جليلة زَوجًا، خاصةً وهى تَسمع أنَّ لَهُ الكثيراتِ؟.. لم يَستطع أحدٌ مِنْهم أنْ يقولَ هذا للتبعِ حَسَّانِ اليمانى.. الَّذى أصدرَ أوامرَه بأن يذهبَ وزيره نبهان مع عددٍ منَ الفرسَان إلى والدِها، ليبلغه بذلكَ الشرفِ الذى يريدُ الملك أن يضفيه علَيْه: أنَ يتزوجَ ابنته جليلة!

وَصلَ الوزيرُ إلى (مرَّة) يَحملُ إليه رسالةَ حسَّانِ اليمانى وفَزعَ الرجلُ، وهَاهُوَ قد بَدأ يدَفعُ ثمنَ استسلاَمه.. فقد ملْكَتَه، وشَقِيقَهُ، وهَاهُو سيَفقدُ ابنتَه.. ثمَّ: مَاذا يَقولَ لابن شقيقه: كُلَيْب خَطيب جَليلة ؟!..

اضطَرب (مُرَّة) ولمْ يعْرف كيفَ يرَد عَلَى الطاغيةِ حَسَّانِ اليمَانى.. ليسَ فى يَدِه أنْ يَرفضَ أوامِرَه.. كمَا أنه لا يستطيع أنْ يسوقَ إليه

ابنته الجميلةَ الذكيةَ: جليلةَ، ليتزوجَ منها، ويُذيقَهَا الذُّل والهوانَ والعذاب.. إنه بحاجة إلى وقتٍ يُفكرُ فيه للخروجِ مِنْ هَذَا المأزَقِ، فَقَالَ للوزير نبهان..

– أرجوكَ أنْ تُمهلني بضعة أيام، لكى نُجهزَ (جليلةَ) حَتَّى تتزوجَ التبع حَسَّان، إذ يَجبُ علينا أن نُرسلَ مَعَها الرياشَ، والثياب، والعطورَ، مما يليق بأميرةٍ سوْفَ تتزوج مِنَ التَّبع ملك العرب حسَّان اليمانى!

أمهله الوزيرُ ثلاثةَ أيامٍ، لا أكثر..

وعَلَى الفور بَدأ مرةُ مشاوراته.. أبلغَ ابنته التى نَزل عليها الخبرُ كالصَّاعقةِ.. إنها تُريدُ ابن عمها، لتخفِفَ عنه بعْد أن فقَدَ أبَاه، ولا ترْضَى لنفسها أن تكون واحدة منْ جوَارى التبع حسَّان اليمانى، وهى ابنة سيد قومها.. أما كليب فقد ثار ثورة عَارمة.. أما كفاه أن فَقدَ أباه، وأرضَه، ليُضيفَ إلى ذلك فَقْد خطيبته جليلة، ولقدْ أقسمَ أنه لن يتنازلَ عنها حتَّى لو فقد حيَاتَه.. ورأى كليب أن يستشيرَ ذلكَ الحكيم الزاهِد: نعمان.. وكان أبوه يَلجأ إليه فى الأزمَاتِ، والظروفِ الصَّعْبة فيشيرَ عَليه بالرأى الصَّائِب، ويَدله عَلَى الطريقِ السليمِ لمعالجةِ المشكلاتِ وحلِّها، والخروج منها بسلامٍ وأمان.. وقَد استمعَ إليه نعمانُ، وهُوَ يُهدىء من ثائرته ويسأله التروِّى، والتفكير بعمق، وفى النهاية قال له..

- اسمعْ يا كليب.. أنا أرى أن الملك التبع حسَّان اليمانى قد وضــعَ لنفسِه نهايته، وأنه بطلبه هذا قَد ختــمَ حياتَــه، وبئـس المصـير.. بـل وحفر قبره بيدَيْه.

سَأله كليب: كيف؟!.. إنه فى أوج مجْدِه وانتصاره..

وضَع لهُ نعمانُ خِطةً بارعَة..

– ٤ –

اجتمع (نعمان) مع مُرّة، وابنته جليلة وكليب..

قال: ما طارَ طائرٌ وارتفع، إلا كمَا ارْتفعَ وقع..

وسَكت قليلاً، قبل أن يضيفَ..

– ما من مُستبد ظالمٍ إلا ولَه نقطة ضَعْفٍ.. هَكذا قالت لنا الحكاياتُ القديمة: عن شمشون وعَنْ أخيل، الأول نَتذكر شعْرَه، والثانى كعبه..

وحَانَ الوقتُ لكى تَقومَ جَليلةُ بدور دَليلةٍ!

ابتسمَ (مُرة) فهو يَعرف نعمان وحكاياتـه، ويَعرفُ مَكرَه وخُبثه، لكن جَليلة لم تكنْ رَاغبةً فى سَماعِ المزيدِ، إنها مهددة بأن تُساقَ إلى حسَّان، كالجارية، وهى تُفضل الموتَ عَلَى الزَواجِ مِنْ هَازم أبيها وقاتل عمِها، وهى تتوقعُ مِنْ نعمان أن يُوجزَ، فلا وقت لديْها للحكاياتِ والأسَاطيرِ، لذلك تعجلته قائلةً:

– نعمان، إنها ساعاتٌ وأصبحُ أمَةً وجَاريةً!

هَدَأَ نعمانُ مِنْ رَوعِهَا، وقَالَ:

– سَوفَ نَقومُ الآن بوَضْع خطة ثلاثيةٍ، تُجهز عَلَى هذا الجبار المغرور.. مطلوب مِنْك يا (مرة) أن تُجهِّزَ ابنتِك، عَلَى أن يكونَ ضمن جَهَازهَا رجالٌ شدادٌ، قَادرين عَلى التصرف بمهَارةٍ وذكاءٍ وسرْعةٍ.

سأله (مرة): وكيف سيَصِلُونَ إليْه؟!..

قَالَ نعمان: هَذه مُهمتي.. أما أنت يَا كليب فإنني سأدَرِّبكَ عَلَى شيءٍ ما أظنك فكرتَ فيه أو خَطَرَ لك عَلَى بال، وأرجُوكَ أنْ تكونَ مُطِيعًا معي، ولا تجادلنى في شأنه لأنني أراهُ السبيلَ الوحيدَ لإنقاذِ جَليلةِ منْ براثِنِ هذا الغولِ المُسمى: التبع اليمانى..

– إننى مُستعدٌّ لأن أخوضَ الأهوال وأنْ..

– أعْرِفُ يَا كليب، لكن الكثرة تَغلبُ الشجاعة، وأنت ستكونَ في قلْبِ قصْرِ عَدوك..

– مَاذا؟

والتفت نعمان إلى جليلةَ، وقَالَ:

– مهمتك أصعب المهام.. عليك أن تكونى قادِرةً عَلَى أداءِ دَورِكِ، الَّذى يَتطلبُ منك أن تكونى مُرحبةً بهذا الزوَاجِ، سَعيدةً به، وتحسين أنه شرفٌ كبيرٌ يضْفِيه عليك حسَّانُ اليمانى..

هَتفت: هل هَذا مَعقولٌ يا نعمان؟

– هَذا هُوَ دَورُك، ومُهمتك، وأمامَنـا وقـتٌ قصيرٌ نُعِـدُّ أنفسَنَا فيـه لهذه الأمور الجَسِيمةِ، الَّتِى تَحتاجُ منَّا إلى أنْ نملكَ زمـامَ أعصابنَـا وأن نتقنَ ما تتَطلبه منا الخطَّة.. وأظْننى سَوفَ أرافقُ موكبَ العـروس لكـى أراقب كلَّ شىءٍ، ومنَ الممكن أنْ أكونَ قَائِدًا لقافِلةِ الجِمَال..

بدأت الاستعداداتُ عَلَى قدمٍ وساقٍ..

وانفردَ نُعمان مَعَ كُلَيبٍ الشاب فى غرفـةٍ مُقفلـةٍ، لسـاعاتٍ طـوال، وقدْ خرجَ كُلَيبٌ بعدَها عَلى هيئة لمْ يَتعرفْ عليـه (مُـرة) ولا (جليلـةً) الأمرُ الذى جَعلَ نعمان يَهتفُ:

– هذِه أولَى خطَواتِ النجاح..

وجَاءَ النجارُون إلى القصرِ بأدوَاتهم، وراحُوا يَصنعون صناديق كبـيرة الحجْمِ، سَمِيكةً.. بعضهَا يتكونُ مِنَ الداخل مِنْ طابقين..

وفُتحـت مخـازنُ الثيـاب، والحلـى، ليمتلئ الطـابق العلـوى مـنَ الصنـاديق بـأفخرِ الملابـسِ، وأغلـى حُلـى، وأجمـل العُطـور، وأدوَاتِ الزينةِ..

وَخرجَ نُعمـان إلى سـاحةِ القصـرِ، يَسـتعرضُ الرجـالَ الأشـداء، وأسْلحتهَم، وأحـسَّ بكثـير مـنَ الرضَـا عنـهم.. ثُـم اختـارَ الجمـالَ التـى سـتحمل كـلَّ هَـذا، واطمـأنَّ إلى قُدرتـهَا عَلَـى حمْـل هَـذه الصناديق الثقيلة..

وسرعَانَ ما مرت الأيام الثلاثة، وهى المهلةُ التى طلبها (مُـرة) لكـى يُجهزَ ابنته جليلة من أجل أنْ تزُفَّ إلى الملك حسَّان اليمانى..

ودَقَّت الطبُول، وارتفعَ صـوتُ النفـير مُعْلنـا انطـلاق الموكـبِ وكَـانَ بين المشاركين فيه: نعمان، وبين المودعـين (مُـرة) الـذى تمنـى لابنتـه عَوْدةً سَالمةً..



– ٥ –

كَان الملكُ التّبع حسّان اليماني يَنتظرُ جليلةً عَلَى أحرّ من الجمر. وعَلَى الجانبِ الآخر، كَانت هُناكَ الكَاهنةُ (حجْلاَن) العجوز، التي يَصْحبها الملكُ حسّان في رحلاته وحُروبه، تجلسُ معَ ابنتها، الّتي سَألتها..

هل تظنين يا أماه أنَّ (مُرة) والد جَليلة سَيقبلُ زواجهَا منَ الملكِ حسّان؟!

ضحكت الأمُ وقَالتَ: إنه لا خيارَ له، وهي فرصة لها لكي تكونَ سيدة القصْرِ والآمرَة والنّاهيةُ فيه..

قالت الابنة: هذا كلامٌ قدْ يَصحُ معَ رجُل غيره، فقد خَبر الدُّنيا، وهُوَ يَعرفُ يقينًا أنَّ ابنته لن تزيدَ على أنْ تكونَ مجردَ جارية مع الرجل الّذى قَتَل عمهَا، والدَ خَطيبها، وخَلعَ أباهَا عَنْ عَرشِه واستولى عَلَى أرضه..

عقّبت الأم: قد يكونَ كل ذَلِك صحيحا، لكنَّ الملكَ حسّان مَا منْ أحدٍ يردُّ له طَلبًا..

غَادَرت الابنةُ أمَّهَا، وقد أشَاعت في نفسِ الكَاهِنة القَلقَ، والشكَّ، فقدْ يدَبِّرُ (مرةَ) شيئًا يُقلت به منْ أوامـرِ الملكِ حسَّان، لذلكَ راحَت تعيدُ حسابَاتها.. فقامت لتفرشَ الرملَ فوقَ منديلهَا، وتُحركُه بأصَابعها، وترسم مِنْ فوقَه خُطوطًا ودَوَائرَ، وتركزُ أفكارها وبصرهَا فيه، فإذا بالرمال وقد تحوَّلت إلى شاشة عَرض، مُنيرة مُثيرة، ترى فيها صُورًا مُجسَّمة مُتحركةً، تَبدُوا في أول الأمرِ قَاتمةً، غَائمةً، مُضطربة، ورُويدًا روَيدًا تتضحُ معَالِمُهَا وتظهرُ تفَاصيلُها الدَّقيقةُ، فتراهَا فِي سُهولَةِ ويُسْر..

رأت الكَاهنةُ عَلَى شاشةِ الرمال مَنظرًا فَريدًا، ومَشهدًا عَجيبًا.. كَانَ ذَلِكَ مَوكب جَليلة وهُو في طريقه لقصرِ الملك التبع حسَّان اليماني.. موكب لمْ ترهُ مِنْ قبلُ أوْ منْ بعْد أرض الشام.. كانت هي جالسةً في هَودج، ضَخم، أنِيق، بَديع المنظر، وَقَد ارْتـدَت ثِيابًا، مُطرزةً باللؤلؤ والمرجان، وفَاحَ في أرجاءِ الهودجِ أريجٌ بالغُ الروْعةِ والجمال، وقد انسَدَلت عليه الستائرُ الحريريَّةُ المزرْكَشَة.. وكَانَ يَقودُ الجملَ المهرِّجُ البهْلوَان الشهير (قشمر بن غره) الذى يَرْتدِي ثوبًا مِنْ فِراءِ الثعالبِ، وجلْدِ الذئابِ، وينمُو عَلَى جَانبىْ وجْهه شعرٌ منْ ذُيول الكباش، وكانَ يَبدُو (عَبيطًا)، عليْه سماتُ البلاَهة والغَباء، يَركبُ – وهو يقودُ الجملَ – بعُود قصَبِ يَرفعُ (زَعزُوعتَه) كَأنها سيفٌ بتَّارٌ، بينمَا تَدلَّى سيفٌ خَشبي إلى جَانبه.. ومنْ حولِ الجمل جَمعٌ منَ الحرس

الفرسَان.. يحيطُ بهم حملةُ الهدَايا، الَّتى وضعَتْ فى صَناديقَ ضَخمة، ثقِيلة الوزنِ، تَتحرك بهَا الدَّوابُ فى صُعُوبةٍ شديدَة.. وفى مقدمةِ الموكبِ كَانَ الوزير نبهان يَسيرُ مَزهُوا مُختَالاً، لأنه حَقَقَ لسيده الملك التبع حسَّان اليمانى مَا كَان يَتمناه ويَتطلع إليه.. وكَانَ مِنْ دواعى فرحه وسروره أن جليلة تبدُو فرحة، مرحة مُبتهجةً، سَعيدة، تُضاحِك وَصيفَاتها فى الهوْدَج، مُعْلنةً عَن شعورهَا بالفخرِ والزَّهْوِ، لأنها سوفَ تزَفُّ إلى ملكِ العرب الَّذى تَرامَت أرضُه وبلادُه واتسعت..

ولا تدرى الكاهنُ العجوزُ (حجلان) ما الَّذى ذكرهَا ببيْتِ شعْرٍ عربى جَاهِلى، يَتحدثُ ويتساءَلُ: مال الجمال سيرها وئيدًا، أىُّ شىءٍ تَحملُ: جَنْدلاً - أى صخرا - أو حَديدًا؟.. ومع الصباحِ حكت لابنتها عَمَّا شَاهدَته عَلَى شَاشَةِ الرمَال، فأبدَت الأبنة دَهْشتها، خاصةً وأنَّ عينى الكاهِنةِ اخترقتا الصناديق، وشاهدتا مَا فيها منْ رجَال مُدجَّجينَ بالسِّلاحِ.. سارعَت الابنةُ تسألُها:

- هل ستُنبهينَ التبع حسَّان اليمانى بالأمْرِ؟

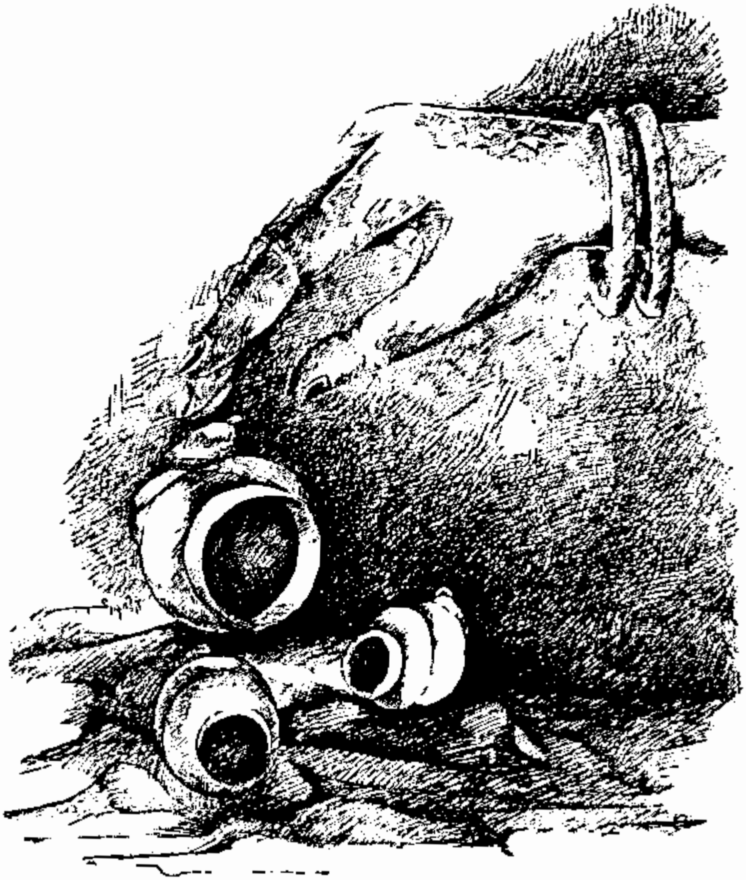
- لا..

ارتسمتِ الدهشةُ عَلَى وجْهِ الابنةِ، وصَاحَتْ: لماذا؟!

أجَابت العجوز إننى لنْ أشى بها.. لأننى أرى نجمتها فى صُعُود، وسأكتم أمرهَا، وأقفُ إلى جَانبها وجانب أهلى لأننى ضِقْتُ ذرعًا بالملك حسَّان، ونزوَاته، وجبرُوته، وأشفِقُ عَلَى هذه الجميلة جَليلة،

وعلى خطيبها الشاب (كليب) الّذى قتل حسَّان أبـاه.. وأعـرفُ يقينـا أننى سوَفَ أتلقى منهْم جائزةً كبيرةً وهديةً ثمينةً لقاء موقِفِى هذا..

قامت العجـوزُ، وتسـلَّلت إلى حيـث أنـاخَ الموكـبُ جِمَالَـهِ، ومـا أنْ لمحـهَا بنـو قيْـس - أهـل جليلـة - حَتَّـى فزِعُـوا، لكنـها طمْأنتُــهم، وأعْلنت أنها ستخفِى مَا رأت، ما دَام العَسسُ والبصَّاصُونَ لم يكتشـفوا أمـرَ الصنـاديق، فقدمـوا لهـا الهدايـا، ووعدُوهــا بـالمزيد إذا تحقــقَ لَهُم النجَاحُ.



– ٦ –

أثارت الصناديقُ شكوكَ رجالِ الدرك، حُماةَ حسَّان اليماني.. كما لم يَحدثْ في القصةِ الفرعُونية القديمة فَتحَ يافا، حينَ اختفى جنديان مسلحان في (خرج)، كل منهما في ناحيةٍ منه، فوق ظهْرِ الدَّابة.. وكما لم يشُك على بابا في القدور الَّتي اختبأ فيها الأربعُون حرامي.

ومضَى الدركُ إلى الصنَاديق التي في المقدِّمة، ولمْ تكنْ تحتوى غير الثيابِ والحليّ والعُطور، وانهَالوُا عليها تكسيرًا، ولمْ يجدُوا فيها شيئًا غيرَ هذا، وعندها ارتفعَ صوتُ جليلة من فوقِ هَوْدِجِها، تَصرخُ، مِنْ بيْن أستار الهوْدج وهي تُمزقُ ثوبَهَا:

– النجدةَ.. النجدةَ.. يَا مليكي، يا زَوجي، يا حبيبي.. أنقِذْ ثيابي، وَحُليِّ، وعُطوري من بيْن أيْدِي هذِه الوحُوش.. إنهم يَفزعُونني.. ويزعجونني ويكدِّرُون صفوي..

.. هل ترضَى هذا لمنْ جَاءتكَ طائِعةً، ملبيةً، لا تنتظرُ على يديْكَ غيرَ السَّعَادةِ؟

وصل صوتُ جليلةَ إلى أسماعِ الملكِ حسَّان في قاعةِ العرشِ، فقام مُسرعًا إلى النافذةِ يَطلُ منها على الساحةِ من أمام القصْرِ، وهَتفَ في

الدَّرَكِ أنْ يَكفُّوا عنْ هَذَا الـذِى يصنعُونـه، ونـزل بنفْسـه مـن أجْـل أنْ يستقبلَ جَليلةً، ويصْحبهَا إلى الجناحِ الخاصِّ بها، وهـو يَرمُقُـها بيْـن حِينٍ وآخرَ، ويتطلّعُ إلَى وجْهها الصبُوح الجميـل، وجِسْمها المَيَّـاس الرقيق، وثيَابـها الأنيقَـةِ البديعـةِ، وقـدْ فَـاح منـها أريـجٌ طيـبٌ، أدارَ رأسَه.. ولحَ وهو يَخُطـو بـهَا ذَلِـك البـهلوَان المـهرج وأدهشَـه منظـرُه، فقالَت جليلة..

– هذا المضحك (قشمر) وسوْف يسرِّى عَنْك، ويجعلك تنسى الدنيـا وما فيها.. وقد صحبته إلى هنَا، طامِعةً فـى أنْ تقبـلَ بقـاءَه.. إنـه قـطٌ أليفٌ، يحسِنُ الرقصَ.. و..

قَالَ حسَّان: عَلَى الرحْبِ والسَّعَة..

وكَانَ الحكيـم نَعمـان قـد نبـه إلى أن هُنـاكَ حلقـة مَعدنيـة، معلَّقـة عَلَـى بـابِ الملـكِ حسـان، تسـقطُ فـوق الأعـدَاء حـين يدخلُـون إلى القصْـر، وتصبِـحُ لهـم قيُـودًا وأصفَـادا.. فأشَـارَ إليـها (قشـمر) خائِفًا مُرتجفًا، فـأمرَ الملـكُ حسَّـانُ برفعـها، إذْ أنَّ القـادِمين مُحِبُّـون، وأصدِقاءُ، وأعزاء..

دَخل الجميعُ إلى القصر، والملك حسان سـعيدٌ غايـة السـعادةِ بـهذه الفتاة الرائعـة (جليلـة) ولَم يكـنْ قـدْ رأى مَـنْ هـى فـى جَمالهَـا بيْـنَ النسَاء، عَلَـى كـثرةِ مَـا التقـى، فـراحَ يمتدحـهَا وإذا بالبـهْلوانِ يَقـولُ بصَوْتٍ كَالصَّفِير..

- خُذ حذْرَك منها يا مولاى إذا ما غَنَّت..

ثم أطلقَ ضحكةً هِسْتيرية.. سَادَ بعدهَا بعضُ الصمْتِ، وإذا بصوتِ جليلة، يجلجلُ فى البهْو، ويتردّدُ صداهُ، وفتحَ حسَّانُ اليمانى، وحاشيته، ووزرَاؤه أفواهَهُم وعيُونهُم وآذانَهم، وراحُوا يتمايلُون طرَبًا، ورقْصًا.. وفى مقدمتهم الملكُ، ومعه البهلَوان.. كَانتْ جليلةُ تُغرِّدُ بكلَماتٍ فيهَا الفرحةُ بلقاءِ التبع اليمانى، الّذى دَوّخَ الأكاسِرَةَ والقياصرةَ.. ودَانت له كل الدنيا بالطاعةِ والولاَء.. ولم تَطل جَليلةُ، ومَالت عَلى الملكِ وهَمسَت:

- مَا كنتُ أحبُّ لأحدٍ أن يَسمعَنى سوَاك، لكنَّ اللقاءَ السعيدَ بك أطلق صوتى مِنْ أعمَاقى معبرًا عن الفرحةِ. أحنَى حسَّانُ رأسَه وقال: ما أجملَكِ، وصوتَك، وكلماتك يا جليلة.. يا أميرة.. مَرحبًا وأهلاً بك.. ومضَى بها إلى الجناحِ الخاصِّ بها، وإذا بالبهلوان يتبعُهما، وعندمَا وصلُوا إلى غرفتِهَا، قال لَهُ الملِك:

- اغلقْ الباب..

وإذَا به يغَلقُه فى وجْه الجمِيع، ويبقَى معهما بالدّاخل.. وراح يقومُ بحركاتٍ بَهلوَانية، إلى أنْ جلسَ الملكُ وجليلة إلى مقعديْن مُتجاورَيْن، فأقعى المهرجُ عند أقدامهم، فقالَ لَهُ الملك:

هـذا الّـذى ترْتديـه لا يَليـق.. دَع هَـذا السـيفَ الخشـبىَّ وقـالتْ جليلةُ: مَا رأيته إلا عَلَى هذِه الصورةِ.. ليته يَـا مـولاَى يَرتـدِى درعَـك وسَيْفَك وخُوذَتك..

أمرهُ الملكُ حسَّان بأن يدخلَ إلى غُرفةٍ جَانبية، ويَفعل مَا طلبتْه منـهُ سيدته، فمضَـى عنـهمَا لحظـاتٍ قصيرةٍ. كَـانَ الرجـالُ المدججُـون بالسلاحِ قد غادرُوا الصناديقَ وأحَاطُوا بالملكِ.. ثم دَخـلَ قشـمر، الّـذى لم يكنْ غيرَ كليب مُتنكرا وطَعنَ الملكَ حسَّان ليخرَّ صَرِيعًا.. لقـد انتقـمَ كليب لأبيه!

تمَّ كلُّ شـيء فـي يُسـرٍ وسُـهولةٍ، ولم يتوقـع كُليـب ذلـك، ودَارت معركةٌ قصـيرةٌ مـا بـين رجالـه الَّذيـن سـبقَ لـه أن اختـارهم مـن بـين الصناديدِ ومَا بيْن حَرس حسَّان اليماني، الَّذين فَت في عَضدهم مصـرع مليكهم، فتَساقطُوا تحـتَ وطْأةِ السُّيوفِ والحِرَاب.. وخلعَـت عنـهم ثيابـهم، وارتداهَا المرافقُـون لموْكـبِ جليلـة، وكـان نُعمـانُ قـدْ أنـاخَ جمَالَـهُ فـي سَـاحةِ القصْـرِ، ومِـنْ خارجـه أهـل البلـدةِ مَـا زالُـوا مَشغولين بـالأفراحِ، ولم يـدروا بمـا حـدَثَ، ولم يعلمـوا بمـا جَـرى.. وسُرعَان ما أعـدَّ نعمـانُ جمـال القافلـة ليتسـلل إليـها كليـب ورجالُـه فـي ثيـابِ حـرسِ التبـعِ اليمـاني.. حَتَّـى جليلـة نَفَسـها ارتـدَتْ نفسَ الملابـس، وأغلقُـوا أبـوابَ القصـرِ بَابًـا بعـدَ بـابٍ، وقـدْ أصبـح خاليًا إلا منْ جسَدِ الملك الَّذى أجلسوه ميتا علـى عَرْشـه، واطمـأنُّوا إلى أنَّ الحرسَ كلَّه قَدْ لَقى مصْرعه، ومضت القافلةُ كلُّها بسُرعة، تريدُ أنْ تهربَ قبل أن تكتشفَ المدينةُ وأهلُها مَا حدثَ وما جَرَى.. إنَّ أمامَـهُم ليلةً كامِلةً في مقدُورهم خلالهَا أنْ يقطعُوا مسافةً طويلةً دونَ أنْ يَفطـن آلَ حسـان إلى أنَّ مليكهم - بدَلاً من أن يدخلَ بعروسِـه، ويَدخـل دُنيـا جَديدَة - قدْ ودَّعَ الحياةَ.

وكان كليب ورجَالُه أثناءَ تركهم السَّاحةَ القائمةَ أمامَ القصرِ يناشدُونَ الجماهيرَ أنْ تغادرَ المكانَ مشكورةً.. فقدْ أدَّت ما عليـها تجـاهَ ملكـهَا، ومنَ الضَّرُورى أنْ تنْصرفَ.. ووَزعَ عليـها كليـب بَعضًـا ممـا نَهَبَـهُ مـن القصرِ عَلَى أنها هدايًا مِـنْ حسـانٍ لهـم فـى هـذه المناسـبةِ السَّعيدة.. واستجاب الناسُ، خاصةً والقافلةُ تتجه هى الأخـرى لكـى تَمضـى إلى الحظائرِ، كما ظَنُّوا.. لكنها مَضَت متفرِّقَة، لكى تلتقى بعْد قليـل عنْـد الأبوَابِ الجنُوبيةِ للمدينَةِ، وقدْ فُتحَتْ لهـا الأبـوابُ لتُغَـادِر، بَعْـدَ أن أدَّت مهمتها وحملَت العروسَ إلى مؤْلاهم التبع..

ونامت المدِينةُ فى صمتٍ وهُدوءٍ..

ولم تستيقظ إلا قربَ ظهرِ اليـومِ التـالى، وقـدْ ألَمَّـت بأهلـها دهشـةٌ كبيرةٌ لذلِكَ السُّكون الذِى سَادَ القصرَ، المغلقة أبوابـه، وظنـوا أنَّ الملـكَ قدْ أمرَ بذلكَ، لكنَّ الشك بـدأ يُسـاورُ البعضَ عِندمَـا لم يَلمحُـوا أحـدًا يخرج منَ القصـرِ أوْ يدْخـلُ إليْـه، خاصـةً وقـد أقبـلَ الـوزرَاء ليقدمـوا التهنئةَ، وكـانت مفاجـأة مُذهِلـة للجميـع أنـهم اكتشـفُوا أنَّ كـلَّ مَـنْ بالقصرِ قدْ لقى مصْرَعه.. وساد هَرَج ومَرَج، واضطربت الأمُور، ولم يعُد هُناكَ منْ يستطيع أنْ يمسِكَ بزمَامـها، ورَاح القـادة والزعمـاءُ يَبحثـون لأنفُسِهم عنْ مكانٍ ومكانةٍ لَدَى منْ سيتمكنُ مِنْ فرضِ سُلطانِه مِـن بيْـن المتصارعين عَلَى العرْش، وإن كانَ الصحصاح – ابن حسـان اليمـانى – هُوَ أبرزُ المرشحين ليَخلفَ أباه.. ولقد شَغَل الجميعُ بـهذه الأمـور عَـنِ

التفكيرِ في اللّحاق بموكبِ جليلةِ.. وكانت هَذه فرْصة أخرى لها لكي تفلتَ بما فعلَت، وعندمَا بدأت عَمليةُ اقتفاءِ الأثر، كَانَ من الصعبِ اللّحاق بها وبموكبها..

وانشغلَ الناسُ بدفنِ الملِك، وحرسِه، ولم يكُنْ هُناك مَنْ بقى عَلَى قيدِ الحياةِ في قصرِ الموتِ ليحكى مَا حدث، ورَاحَ الجميعُ يَضربُونَ أسداسًا في أخماس، غير قادرين عَلَى معرفةِ الحقيقة، وإن كانَ مِنَ الواضِحِ أنَّ مؤامرةً قَدْ حَاكها بنُو مرة، لكى ينتقمُوا مِنْ حسَّان الذِى استوْلَى عَلَى بلاَدهم وأرضِهم، وقتلَ رَبيعة حينما رغب في تحديه، ونفى مُرة بعيدًا عنْ دمشق..

وكَانت جليلةُ أسْعدَ الناسِ بمَا جرى وبما حَدثَ فقد أفلتَت من جَبروت التبع اليماني، وأخَذَ ابنُ عمها الثأر، وهاهي تعودُ حرةً منتصرةً، لا يحولُ شيء بينها وبيْن أنْ تزفَّ إلى كُليب، بعْد أن يُعْلنُوه مَلكا.. وكان كليب لا يقل عنها فرَحًا وابتهاجًا، فقدْ حققَ أمله بأسرع مما توقَّع وهاهو يَرجع مرْفُوعَ الرأسِ، مَوفورَ الكرامةِ.. أما نعمان فقد امتلأ بالفرحِ والفخرِ، فلا أقل مِنْ منصبِ الوزير يَنتظرهُ جزاءً وفَاقا لنجاحِ تدبيره، وتوفيقه في خطَّتِه الجُهنَّمِيَّة..

عَادَ موكبُ جليلةِ، عَلَى نفْس الطريق الَّذى جَاءَ منه.. كَانت سعيدةً لأنـها تَخلصت، وشاركت فـى إراحـة النـاس مِنْ حسَّـان اليمـانى الطَاغية،وإعَانةِ خَطيبها على تنفيذِ الخطَّة التـى وضعـها لهُـمْ الحكيـمُ نعمانُ.. وكانَ كليب قدْ خلعَ عنه ثيابَ المهرج، وارتدَى عَبَاءة الحكْم، وسَارعَ يبعثُ إلى عمه (مرة) بالأخبَار، وقد استقبلَهُم عِنْدَ بابِ المدينة، مُهنئًا بذلِكَ الانتصار، مُبَاركًا زواج جَليلة منْ كُليـب، فأقـامُوا الأفـرَاحَ والليالى الملاح..

وكَانت جَليلة تتمنَى أنْ يسير زوجُها بيْنَ الناسِ سـيرةً حسَنَةً وقـد رأى ما فعلَه ذلـك المستبدُّ حسَّـان اليمـانى بـهم، وكـم فرحُـوا عندمَـا تخلصُوا منــه، لكـنَّ الأمـورَ لم تكـنْ كمـا تمنَّـتْ وأرادتَ، إذْ تغطْـرسَ كليـب، وأصبـح فـى بشـاعة التبـع، بـل وأكـثر، وكـمْ نصَحـه عمُّـه، ونصحتْه جَليلَة بــأن يكـفَّ عَـن الظلْـم، ويَشـيعَ العـدْلَ، غـيرَ أنـه لم يَنتصحْ، بل تَمادَى، وكَرهَه الناسُ كُرهًا شديدًا، وضَـاقت بـه جليلـة، وتَربصَ به الكثيرُون يريدُون أنْ يتخلَّصُوا منه..

استدعت جَليلـةُ إليـها الكاهِنـةَ العَجـوزَ (حجـلان)، مـن أجـلِ أن تُكافِئَهَا عَلَى صَمتها عنْ إبلاَغِ حسَّان اليمانى بمَا كَان يُدبِّرُ لـه، ولكـى

تستطلع لهَا مسْتقبلها، ومصيرَهَا مع هَذَا الزوج المسْتبد، والَّذى يريدُ الجميعُ أنْ يستريحُوا منه.. وفَرَشَت العجوز رملهَا فوق منديلها وراحتْ تُخططُ مِن فَوقِهِ، وهى تُركِّزُ النظرَ إليه، وظلت صَامتةً لفتْرةٍ طَالتْ.. واضطرتْ جَليلةُ إلى أنْ تَسألهَا..

- مَاذا تخفِى الأيامُ لزوْجى كليب؟!

- تَخفى شرًّا مُستطيرا..

- مَنْ ذَلِكَ الَّذى يَسعَى إليه بالشرِّ؟

- إننى أرى أنَّ قتلَه لنْ ينهى متاعبَ القَوْم..

- مَاذا؟! إنهم يَروْنَ فيه السَّبب الأولَ والأخيرَ فى حياةِ البؤس التى يحيُونهَا..

طَوَت السيدةُ العجوزَ منديلَها، وصرّتهُ على رمَالِها، وَسَألتْ جليلة..

- مَا الّذى يَفعلهُ لكى يكرهُهُ الجميع؟

أجابت جليلة: إنَّه ظلُومٌ جهُول، أرعَن جَشِع، لذلكَ لا يطيقُونَه..

- ألمْ يخلصهُم من التبع اليمانى؟

- نعم، ليقعُوا بيْن يديْه هُوَ.. تصوَّرى أنه أُعجب بقُبَّرةٍ وَدِيعَةٍ ترقدُ فوقَ بيضها، وإذا به يعلنُ أنه وضعَهَا تحتَ حمايته.. وعندمَا خرجَت

أفراخهَا كَانَ الناسُ يخافُون السيرَ فى المناطِق الَّتى تَطـيرُ فيـهَا خشـية أنْ يَتهمَـهُم زبانيتُـةُ بـالاعتداءِ عليـها أو إيذائِـهَا، وبقيـت مسـاحاتٌ شَاسـعةٌ مـن الأرضِ بـلاَ مُزارعـين.. ممـا اضطـرَّ معــه شـابٌ شـجاعٌ إلى تَحطيم عشها، فعاقبَ عبيدَه لأنهم لمْ يَعرفُوا هَـذَا الشـابَّ ويُسـلِّمُوه إليه ليَقْتُلَه!

أبدت الكَاهِنةُ دهْشتهَا مما يفْعَلُه كُليب، وواصلتْ جَليلـةُ حكاياتِـه الْمذهِلةِ، فأضَافت:

– وتكرَّرَ هذا مـع كلبـة هَزيلـة.. وجميـل أنْ يكـونَ الإنسـانُ رفيقًـا بـالحيوانِ الأعْجـمِ، ولكـنَّ عليْـه أن يكـونَ أكـثرَ عَطْفًـا علـى أخيـه الإنسَان.. وقد تمكّنَ ذَلِكَ الشَّابُ من التخلُّص منَ الكلبةِ وإراحة الناس منْهَا.. وللمرةِ الثانية لم يتعرفُوا عَلَى ذلكَ الشَاب، وعُوقبُوا علـى ذلـكَ وأُودِعُوا السُّجُون.

قالت العرَّافة: لقد رأيتُ ملامحَه على شَاشةِ الرمالِ، ولسـتُ أدْرى لماذَا أجدُ فيه شبهًا منْك..

همَست جَليلة: أرجُوك، لاَ تبلّغِى أحدًا بهذَا..

– لنْ أنطقَ بكلمةٍ، لكـنْ تُحدّثُنِـى نَفْسِـى أنَّ قـاتل كليـبٍ سـيكُونُ هُناكَ مَنْ يثأرُ له.. ومنْ قَتَلَ يُقْتلُ ولوْ بعْدَ حِين.
ودَعَت جَليلةُ الكاهنة العجوزَ، وهى تَقولُ:

– هلْ كُتبَ عَليْنَا أنْ نعيشَ حياةً قلِقة، مضطربةً، تمتلىءُ بـأحْدَاثِ قَتْل جِسَام؟! لماذا لا نَحيَا فى وئام وسَلام؟ يأتينا ظـالمٌ إثـر ظـالمٍ، مـا أن تَقتلعَ مُستبدًا حَتَّى ينبُت آخرُ أشدُ وَأقسى.. إنَّنى بدأتُ أشُـكُّ فـى أى رجُل عاقِل يُحَاولُ بكُلِّ ما يَسْـتطيعُ أنْ يُسَـايسَ الحيـاةَ والنَّـاس، ويقْنعَ بالقَليل..

قَالت الكاهنة وهِىَ تُغادرُ المكَانَ حَاملةً مُكَافأتها:

– قُولى لأخِيك ألاَّ يقَع فى شباكِ الإغْرَاءِ!

– ٩ –

مضَت الكاهنةُ، وجَلسَت (جليلةُ) وحدَها تُفكرُ، وقد وَضَعتْ رأسها عَلَى كفها، ورَاحَت الخواطرُ تَلْهَثُ فِي عقْلها..

– ترى هل تحدثت الرمالُ حقًّا للعجوز العرَّافةِ، أم أنهَا سمعَت ما يَتناقلُه الناسُ عنْ شقيقها جَسَّاس؟!

كَانَ جسَّاسُ أخوها شَابًا فَتيًا، شُجاعًا، وكَانَ مِنْ بين الَّذين اختفُوا في الصنَاديق الَّتى رافقتها فى رحْلتها إلى دمشقَ، حَيثُ كان يقيمُ التبعُ اليمانى حسَّان، وشاركَ فى حِصَاره، ومهَّد للصَّناديدِ مِنْ بنى مرة للتخلص منْه علَى يَدِ كُليب.. وَفِيمَا يرَى جَسَّاس، ويتحدَّث به إلى أختِه أنهمْ لمْ يتخلَّصُوا مِنْ ظالمٍ مُسْتبد، ليَأتى مِنْ بعْدِه منْ هوَ أكثرُ منه استبدادًا وظُلمًا.. وكانَ يعْنى بذلك زوجَها كليب، وتحاولُ جَليلةُ أن تُخففَ منْ سُخْط جسَّاس وغضبه، إذ كانت تخشى أنْ يعلمَ بذلكَ كليب، فَيُسلِّطَ عليْه زبَانِيته.. قَالت لنفسها:

– تراهَا طبيعيةً فى نفُوس البشر أنْ يُصبحَ الحاكمُ طاغيةً فى اللَّحظةِ الَّتى يتسلمُ فيها سلْطَانه؟! أمَا منْ سبيل لأنْ يَحصلُ الناسُ عَلَى حَقِّهِم فى أنْ يُعَبِّرُوا عنْ أنفسِهم دونَ أنْ تَضيقَ بهم عظمة

الحاكم؟ هَلْ منَ المُفترضِ أن يكونَ هُوَ عَلَى صَواب دائمًا؟ أليسَ من الأفضلِ له أنْ يُراجعُوه إنْ هو أخْطَأ لكي يصلحَ منْ أمره؟ أليسَ الرجُوعُ إلى الحق خيْرًا مِنَ التمادِى فِى الباطِل؟

وقَطعَ عليها حبْلَ أفكارهَا دخُولُ كليب عليها كالعاصِفة، وقدْ رَاحَ يَخلعُ عنه لباسَ الحربِ، ورَاحَ يَقذفُ بسيُوفِهِ وجِرَابه هُنَا وهُنَاك، وهى تَقطرُ دَمًا، بينمَا رَاحَ يهدِّدُ صارخًا..

– لقدْ أتيْتُ عَليْهِمْ جَميعًا، وأحرقتُ خيامهم، ولنْ تقوم لهم بعدَ اليومِ قَائمة، وهكذا سيكونُ مصيرُ كل مَنْ تَسوّلُ له نفسُه أنْ يعْصى لى أمرًا!

سكتت، ولمْ تَسأله مَنْ يكُونُون، فقدْ ضَاقتْ بأحَاديث الحروبِ والدمَاءِ، وتمنَّت لوْ أنَّ زوجها أعْطى جَانبا مِن اهتمامِهِ للزرْعِ والضرْعِ، ورَغبَت فى أن تكتسى الأرض بالخضرةِ، وأنْ تمتلئَ المرَاعى بالأغْنام، وأنْ تحتشدَ الأسواقُ بالبضائعِ، يَحملها إليها التجارُ، ويقْبلُ عليهَا المُشْترُون.. إنها يومًا بعْدَ يومٍ تَنحازُ إلىٰ أفكار أبيها، ورَغْبته فى البناء والتعميرِ، وتضيقُ بهذا الَّذِى يَفعلهُ زَوجُهَا، وَيقُوله، إذْ لاَ حَديثَ له إلاَّ عَنِ المعاركِ والقتال، وقدْ عَافَت نفسَها ما يصنَعُه، وما يتكلَّمُ فِيه..

وارتفعَ صَوته منْ جديدٍ..

– مَالَك صَامِتة، لا تقُولين شيْئًا..

– ليسَ عندِى ما أقولُه..

– حَدِّثينى عما يصِلُك مِنْ كلامٍ يتقـوَّلُ بـه النـاسُ عَلـىّ، وضـدىّ.. انقُلى أخْبَارَ القَبَائِلِ التى تُحاولُ رَفْعَ رَايَةِ العِصْيَان..

– تَعلمُ أنى أضِيقُ بهذِه الأمُور منذُ رأيتُ دمـاءَ حسَّـان تَسـيلُ عَلَـى الأرْض، عَلَى الرغمِ من أنهَا حَرَّرَتْنى منه.. وكمْ تسَاءَلت: ألم يكنْ مِـنَ الخيرِ لهُ ألاَّ يَسْعَى للزواجِ مِنىّ، وأنا مِنَ مُعسْكرِ أعدائه؟!..

– لقدْ أورَدَه ذلكَ موردَ الهلاكِ ولقى جزَاءَه.. الَّذى يَستحقُّه.. لأنــه كَان ظَلُومًا غَشُومًا..

– وهل اعتبرَ الآخرُون بمَصِيره؟

صَرخَ فيها: مَاذا تَقصُدِين؟ هل تردِّديـنَ مـا يقولـُه النـاسُ هُنَـا؟!.. للحكمِ سَطْوَته التى لا تحميها إلا السيُوف والرِّمَاح؟

– ألا يمكنُ أنْ تحميه المحبَّةُ والمَودةُ؟

مطَّ شَفتيه سَاخِرًا هازئًا، وقَالَ:

– المحبَّـة؟ المـودَّةُ؟ كيـف والجميـعُ طَـامِعُون فـى منْصِبـه؟ قَـالت: الجميع؟

– نَعم، منْ ذَا الَذى لا يريد أنْ يحكمَ ويُسيْطر؟

– مَاذَا ترى فى أبى؟

– أراهُ ارتضَى لنفْسِه الضعْفَ والاستكَانةَ!

– بل سَمَا بنفْسِه وارتفعَ بها عَن الصَّغَائر.

– وهل (الحُكم) و (السُّلطة) مِنَ الصَّغائر؟

– قدْ تكونُ أحيانًا مِنَ (الكبائر)..

ألقى عليها نظرة ضيقٍ، وَغَادرَها إلى (حَرِيمه)..

تنفسَت جَليلةُ الصَعَداء، وشعُرَت بالارْتياح عندمَا مَضَى عَنْها، وعَادَت تُفكرُ في شقيقِهَا جسَّاس، والشبابُ الذِينَ يحيطُونَ به، ويتطلَّعُون إليْه بَطلاً مُنقِذًا.. كم تشفِق عليْه منَ المصيرِ الذى يَنتظِره: إنه ثائرٌ ضِدَّ كُلَيب، وإذا ما استطاعَ هَذَا أنْ يمسِكَ به، فلنْ يبْقى عَليه.. ولوْ أنه تمكنَ هُوَ مِنْ كليب، فإنَّ أخَاهُ الزير سَالم سيكونُ له بالمرصَاد.. وزفرَت قائلةً..

- يا لمصيرِكَ المحتوم يا جسَّاس! حتَّى الكاهِنَة تَسألُنى أنْ أنبهَكَ لكى لا تسَقطَ فى شِباكِ الإغْراء!

وكانت شباكُ الإغراءِ تنَسجُ مِنْ حَولِهِ دُونَ أنْ يَدرى.. ذَلِكَ أنَّ شقيقة حسان اليمانى عِنْدمَا علمَت بمصْرعه جُنَّ جُنونها، وامتطت ناقَتَها البسُوسَ، وراحت تَقطعُ بها الفيافِى والقِفَارَ فى طريقِهَا إلى أرض الشَّام، وقد أقسَمت بكل المقدَّسَاتِ أن تنتقمَ لأخيها مِنْ كُلَيب.. ومَا كانت تَدْرِى أنَّ هَذِه الناقةَ الَّتى تركبُهَا ستكونُ لها حكايةٌ طويلةٌ يَحفظهَا التاريخ، بل ربما أصبحت أشهرَ نَاقةٍ عَرفهَا عَلَى مدَى امتدادِ سنَوَاته..

كانت سعادُ - أخت حسَّان اليمانى طيلة الطريق تتصورُ أنَّ النَاسَ لابد وأنْ يَرَوْا فى كليب بطلاً، لأنَّه خلصهُم مِنَ الطاغية، لكنها

اكتشفت أنه صار بغيضا كريها، ووصل إلى سمعها ما يتناقلونه عنه، وما يتحدثون به عن بطلهم وأملهم جساس بن مرة شقيق جليلة، فبادرت بالسعي إليه، والتعرف عليه.. وقد اجتذبته بفصاحتها وشعرها، فسألها: من تكون؟

أجابت: إنني من قوم كانوا أعزة كراما، لكن الدهر غدر بنا، ودارت علينا الأيام، لنصبح كالأيتام على موائد اللئام، لذلك لجأت إليك يا جساس بن مرة، من أجل أن تحميني وناقتي (البسوس) من غدر الزمان، وعدوان الأشرار، فأنت ابن (مرة) الشيخ الجليل، وشقيق جليلة الجميلة، ولن أجد في الوجود من ألجأ إليه سواك!

تأثر جساس بكلماتها، وشعر بالعطف عليها، وهو أصلا قد ضاق ذرعا، هو وجليلة بزوجها كليب، وهاهي هذه المرأة توغر صدره ضده، فقال لها..

- تعال لتريني ناقتك البسوس..

خرجا إليها، ودارا حولها، وإذا به يشم منها رائحة زكية، هي خليط من المسك والعنبر والصندل والطيب، وكانت ترقد قرب قطيع جماله، وقالت له..

- هاهي البسوس التي أهاجر من أجلها من بلد لبلد.

سألها في دهشة: لماذا؟ ما السبب في ذلك؟

- مَا منْ حاكمٍ ألوذُ به وأطلبُ الحماية لَها، إلا ويَطلبُ منى هذه الناقةِ: هديةً، أو شراءً بأى ثمن، وعِندمَا أرفضُ يُضايقنى ويرهقنى، حَتَّى أضطر إلى تركِ بلادِهِ والبحث عنْ مكانٍ آخرَ، فهل أجدُ عِندك الحِمايةَ لى والرِّعايةَ لها؟

قَالَ جسّاسُ: أنتَ وناقتك وخدمك ستلقُون عندِى الأمانَ والاطمئنان، وتعيشونَ فى رضا وإسْعَاد، يا سعاد!

وهكذا أقامَت عِندَه شَهرين، كانت تَحاولَ خِلاَلهما أن تُثيرَ الفتنَ بينَ القبائلِ وتَنشرُ البُغْضَ فيما بينها ضدَّ كليب، وتثيرُ الأحقاد مَا بين بنى بكر، وما بين بنى ربيعة، كما كانت تروى قصصًا أشبه بالأساطِير حولَ ناقتِها الهزيلة العَجفَاءِ، تَتحدثُ عَن روعتِهَا، وعَظمتها، حَتَّى لقد تناقَلَ الناسُ عنها قَولَها..

.. هذِه الناقةُ مباركةٌ، فهىَ منْ نسلِ نَاقةِ سيدنَا صالح عليه السلام، وإنَّ عَرقها مسْكٌ، وفضلاتها عنبرٌ..

وهَذا هُوَ ما جَعلَ الحكامَ والأمراءَ يَطمعُونَ فيها ويتطلّعُون إليها.. قبل أنْ أصلَ بها إليكم، لأجدَ الأمان والاطمئنان..

وقد تبادلت جليلة وجسّاسُ أخوها أحاديثَ طويلةَ عَن (سعاد) وناقتها، وحوْلَ كليْب وظلْمه وقسْوته، وكانَتْ دائمًا تَخشَى تلكَ

النبوءَة الَّتى تقولُ إنَّ أخَاه الشاب الفتى الزير سالم سَوفَ ينتقمُ ممَّنْ تَمتدُّ يَدهُ بالسوء إلى كُليب زوجها، لذلك كانت دائما تُحاولُ أنْ تُرجئ التخلصُ منه والإجهاز عليه، رغم اعترافها بسُوء خُلقِهِ وفَسَادِ تَصرفِهِ، لكنَّ صَاحبةَ البسُوس كَانت تقرنُ القول بالعمل، لِذَلكَ وزعتِ السلاحَ سرًّا عَلَى الشبابِ الَّذى انضوَى تحتَ لواء جسَّاس، وراحُوا يَتدربُونَ عَلَى استخدامِه انتظارًا لساعةِ الصفرِ الَّتى يُحددُهَا لَهُم ليريحوا الناسَ منْ كليب.. الطاغية.

علمَ رجَالُ كليب بما يحدُث، ونقلُوا إليه سرًّا مَا يدورُ ومَا يجْـرى.. لِذلكَ شعرَ بقلق شديدٍ، ورأى أنْ يَعيدَ النظرَ فى كلِّ مَا حَوْله، ومَضى إلى عَمهِ (مُرة) يَسْألُه المشورَة.. قالَ له الشيخُ العجوزُ:

- إنى أراك يَا كليبُ حَادًّا وعَنِيفا، مثلما كانَ أخى والـدك.. ليتـكَ يا بنى تُغيِّر مِنْ أسلوبكَ، ولَقَدْ دَفعَ (ربيعة) حياته ثمنا لتصرفاتِهِ..

ردَّ كليب: بلْ لأنه رفـض الظلـمَ وأبـى أنْ يَقبلَ استبدادَ حسّـان اليماني..

- لا رغبةَ لى فـى أنْ نتجـادَلَ فـى أمـر مَضَـى وانقضَـىَ.. المستقبلُ أمامُكَ واسِعُ وعريضُ إذا عرفت كيف تُحسنُ معَاملةَ الناس.

- الناسُ، يا عماه، لا تَعرف مَنْ مَعكَ، ومن عَليكَ.

- إلى هَذَا الحدِ تجهلهم؟

- لستُ أجهلُهم، لكنهم يُغَيّرون جلودَهم كلَّ يوم.. بل كلَّ سـاعة، وما مِنْ واحدٍ تَستطيعُ أنْ تُودعَه ثِقتك..

- عليهمْ أنْ يَفرغُوا مَا فِى نُفوسـهم مـنْ حقـدٍ، وأنْ يحلُّـوا المحبـة فيها.. وساعتها سوفَ يسودُ الوئام والسَّلام!

كَانَ هذَا الحوار، ومثيله، يَدورُ مَا بـين العامـة والخاصـة.. والنـاسُ تَختلفُ وتتفِقُ حوْلَ مثلِ هَذه المواقف، وهنَاكَ وجهَات نَظـر مُتباينـة، وهُناك الرأىُ الآخرِ، هَكَذَا الناسُ مُنـذ خلَقـهم الله لكـن النـاسَ ضَـاقُوا بكلَيْبِ وحُكْمه، وكثرَ كلامُهم عنْ عَسْفِهِ وظُلْمِهِ واسـتبدادِه وهُـوَ غَـافلٌ عنْهم، وقدْ أحسَّ بالضِّيق لمؤامـراتِ أهلِ زوجته وتمرُّدِهم عليه، فصــارَ لا يهدأ له بالٌ، ولا ينعمُ بنومٍ.. وفَكرَ فى أخيه الزيـر سـالم واسـتدعَاه لساندَتهِ، لكن هَذَا كَان غَارقًا فى لَهْوِه ولعبه وشرابه، وعَبثـه، وطَربـه معَ الخِلاَّن غير عَابئٍ بما يَدورُ ويَجرى.. وقال لهُ ناصحًا:

– لماذا لا تحاولُ أنْ تسيرَ بينَ النَّاسِ بالعدْل والقِسْطاس؟ حَـاولْ أنْ تُحببَ فِيك الرعيةَ، وأن تكسِبَ ولاءَ الفرسانِ، وأنْ تَجمعَ مَـنْ حَوْلـكَ مِنَ الأعيانَ..

لكن أخاه لمْ يَستمع إليه، ورأت جليلةُ أنْ تبدأ بالتخلُّص مِنَ الزيــر سالم، ومَا كَانَ منـها إلا أن اتهمتْـه زورًا أنـه حَـاولَ الاعتـداءَ عليـها، ونقلت هَذا إلى كُليب المستبد زوْجِها، فغضبَ وثارَ، وأعلـنَ أنـه لابـدَّ وأنْ ينتقِـمَ منْـهُ، ويقتلـه.. ومضَـى إلى مضَـاربِ خيامِـهِ، ليجـدَهُ بـينَ أصحابه، وخلانهِ يشربُون ويَلْـهُون، وَحوْلهـم المغنيـاتُ والراقصاتُ.. واتجه إليه، وانهالَ عليه صَفعًا وركلاً وضَرْبًـا، والزير سـالم – شـقيقه الشاب الصغير لا يدافِعُ عــنْ نفسِه. ولا يسـألُه السـببَ فيمـا يَفعُلـه، ولا تمتد يدُه إلى شقيقه الأكبر، الذى مـزقَ ثيابـه، وأمـره بـأنْ يرتـدِى

مَلابسَ الرعَاة، ويخـرج معـهُم إلى خدمـةِ النـوق والجمـال، والخـراف والماعز، ولم يبْد الزير سـالم اعتراضًـا، ولا احتـجَ علـى أخيـه.. وعَـاد كليب إلى زوجَته يحكى لها مَا حَدثَ، فتظاهرت ببعْـض الرضـا، مـع أنها كانت تتمنى لَوْ أنَّ زوجَها رجَعَ إليها وسيفه يَقطرُ مِنْ دماءِ أخيـه الزير سالم.. الّذى نجَا مِنْ هَذَا المصيرِ الرهيب.

كَانَ منَ الواضحِ أنَّ جليلة قدْ بدَأت تنفرُ مِن زوجِهَا كُليـب ونَزواتـه وتَضيقُ بتصرفَاته وأعمالهِ، لكنها أخفَت كلَّ ذَلِكَ، وأظهرت لـه المـودة عَلى غيرِ ما تُبطِنُ.. وفى رأيـها أنـها لمْ تُغـامِرْ بحياتِـها مـنْ أجـلِ أنْ تتخلصَ منْ حَسَّان اليمانى، لكى تقعَ فى هَـذا الشـرك.. إنـها كـانتْ تُريدُ حياةً أفضلَ منْ هذِه، والرجلُ الذى قَامَ بدوْرِ البهلوان مِنْ أجْلها، ومنْ أجلِ قبيلتهِ حَتَّى استطاعَ أنْ يتخلَصَ من الغاصبِ اليمانى، وظهر أنه فَعلَ ذلك منْ أجلِ نفْسه، لا أكثر ولاَ أقلَّ.. لقدْ قتلَ اليمـانى لكـى يأخذَ مكَانَه فى الحكْم، وليطيحَ بأحلاَم الناسِ فى أن يَعيشوا أحـرارًا، وليسَ ليستبدَّ بهم ويظلمَهُم.. وما كَانَت جليلةُ تظـنُ أنـها سـتكونُ أولُ منْ يتحكَمُ فيـها ويسـوقُها العـذاب، لذلـك بـدأت فـى التـآمُرِ عليْـه، وكانت أكثرَ مكرًا منْ أن تُطيحَ به مباشرة، بلْ لجـأت إلى التفكـيرِ مِـنَ التخلُص مِن أخيهِ الشابِ الأصْغر، ووجدت أنَّ أفضلَ سـبيلٍ لذلـكَ أنْ تُوقعَ بينَهما، وقَدْ يُثمرَ هذا عن التخلص منهما معًا، من أجلَ أنْ تعودَ السيادةُ لبنى مرةٍ، أهل أبيها، ولكى يرتـاحَ النـاسُ مِـنَ بنـى ربيعـة، وعصبيتهم، وتحكمهم..

تسلطت هَذِه الفكرةُ عَلَى جليلةٍ، وراحت تعملُ مِنْ أجلِهَا ليلَ نهار، وكانت ترغبُ فى أنْ تُحقق هدفَها بالدهَاءِ والحكمةِ لأنَّ زوجهَا إذا أحسَّ منها بأىٍّ لوْن مِنْ ألوانِ التآمر عليه فَسوْفَ يَطيحُ برقبتها، لِذلِكَ وَضعت عَلَى وجهها قناعَ الرضا عنه والمحبة له، بينما كان رأسُهَا يَعملُ للخلاَص منه.

راحتْ جليلةُ تُفكرُ في مؤامرَةٍ أخرى ضدَّ الزير سالم، شقيق زوجها - وعندمَا عادَ كُليبُ يومًا منْ رحلَة صَيْدٍ طَويلة قَالت لَهُ:

- منَ الواضحِ أنَ أخاكَ قد استطابَ حياةَ الرُّعاةِ، وأعجبه أنْ يَعيشَ بين العبيدِ والخدمِ، الأمرُ الذى يُؤكدُ وضاعته، فقد نسى كرامتَه، وغَفَلَ عنْ رجُولته، ومرغَ سمعتكم فى التراب.. أمَا مِنْ سَبيلٍ لمحوِ هَذا العَار؟

رَدَّ كُليبُ: مَا مِنْ سبيلٍ لِذَلِك غيرَ قتْله.. وواضح أننى أخطأتُ حِين تهاونتُ معَه بعدَ سقطَتِه الدنيئة..

قالت، وقدْ انتابهَا فرحٌ شديد، استطاعتْ أنْ تُخفِيه بصُعُوبةٍ:

- أعرف أنْ ذَلكَ هو العقابُ الَّذى كَانَ لابدُ وأن تَنزله به، لكنْ لاَ تُلوثُ يدكَ بدمِ أخيك..

- إنه لا يمكن أنْ يكونَ أخى!

واصلَت: إنى أقترحُ أنْ تُلقى به بعيدًا، فى أرض السباعِ، فلا تَشهدْ مصرعَه، إذ سَيؤرقك هَذا فى أيامِكَ المُقبلة..

أبدى كليبُ إعجابَه بما اقترحْته عليه جليلةُ، زوجتُه.. وقـامَ عَلَـى الفَور وامتطى حصَانَه،، ومَضى إلى حيثُ يُقيمُ أخُوه بين الرعَاةِ، وفِـي لهْجةٍ آمِرَةٍ قَالَ لَهُ:

– اتبعْني أيُّهَا الفَتى الفَاسِق!

وسَارَ كُليب عَلى فَرسِه، ومَشى أخُوه مِنْ ورائه عَلَى قدميْـه، إلى أن وصَلاَ وادِي السِّباع، ليتركَه لمصِيره، وفجأة صَهلَ الحصانُ وشبّ عَلَـى قَدميْه الأماميتين في ذُعـر وفَـزع، وتمكّـنَ كُليـب مـنْ أنْ يَقبـضَ عَلَـى زمَامِهِ في عُنفٍ، عِندمَا لَمَّح سَبعًا قَادمًـا عَليـه بفرائـه المُغـبر، ولبدتِـه الضَّخمة، وقد فَتحَ فمَهُ لتظهرَ أنيابُه المفزعةُ، وتَبـدو مَخالبُـه المُرعبـة، وارتفعَ صوتُ زَئيره مُدوِّيًا، وحَاولَ كُليب أن يَتلقاهُ بسلاَحِهِ، ويَضربـه بحربتِهِ، إلا أنَّ اهتزازَ الحصان مِنْ تحتـه جَعَلـه يُخطـئُ التصويـبَ، وعِندهَا يـدأ الأسـدُ يُـهاجمُ الحَصـانَ، وإذا بـالزيز سـالم يَثبُ عَليـه، ويَمتطيه مُمسكًا بلبْدَتـه، ويَشـقهُ نَصفين بواسطةِ خنجـره الصغـير!، وأخـرجَ قَلبَـه ليطـأه بأقدامِـهِ، إذْ كيـفَ يَجـرؤ عَلَـى مهاجمـةِ أخيـه الأكبر!، وكانَ خلاَلَ ذلك يَهتفُ قائِلاً:

– لا تَخفْ يا أخي كليب، فما هذا السبع إلا مُجرد وحْـش تافـه، سَوْف أخلصُك منه لترجعَ إلى جليلةِ، وقصْرك، ونَاسك!

عَادَ كُليب، ومن ورائه يَسيرُ أخُوه فـي صمـتٍ تـامٍ، وعندمَـا وصَـلَ كُليب إلى قَصرِه، استقبلته جليلـةُ تَريـد أن تَسـمعَ أخبـارَ مـا حـدث،

وكانَ أنْ رواهُ لها بالتفصيل، وفيَ لهجةٍ يشوبها الإعجَابُ بأخيه، فما أن انتهى منْ كَلماتِهِ، حَتَّى صَاحت جَليلة..

– دعْني أعدُّ ثيابي وأذهبُ..

سألها: إلى أينَ؟

أجابت: أروحُ إلى أهلي يَصُونُون عِرْضِي ويَحفظُون لي كَرامتي، ويحمُون شَرفي.. أنتمْ يا بني ربيعة ليسَ باستطاعتكم ذلِكَ، إذ وافضيحتاه!

حاوَلَ كليب تهدئتهَا، وقالَ لها:

– ألا تحمدين لهُ إنقاذه لي..

– ينقذُك، هَذا الَّذي كَانَ يَريدُ أن يَسلبَكَ شَرفَك؟

– مَاذا يُمكنني أنْ أفعَلَه به، ومعه؟!..

هدأت قليلا، ونظرتْ إليه في قسْوةٍ، وقَالت:

– إذا كنت جادًا في سُؤَالِك، خذه إلى بئر، وانزلْه فيه، ثم اقطع الحبل الذي يَصلهُ بك، حتى لا يخرُجَ أبدا، وبذلك تَنتقمُ لشرَفِك.. إذ (لا يسْلَم الشرفُ الرفيعُ منَ الأذى حَتى يُراقَ عَلَى جَوانِبِه الدمُ)..

ترَدَّدَ كُليبُ بعض الوقتِ، وبعدهَا سَادَ الصمتُ إلى أنْ قطعه بقوله:

– سَوْفَ أفعَل ذلِك..



وفى اليومِ التالى خـرَجَ كُليـب، ومـنْ ورائِـه شـقيقه، ومـن حَوْلهم الفرسانُ، وعندمـا وصلُوا إلى بـئْر السـباع، قَـالَ الزيـرُ سـالم فـى نبْـل وأريحيّة.

- دعُونِى أنزلُ إلى هَذا البئر، أسْقيكم، وأروى خيْلَكم!

ونزلَ وملأَ الدلاءَ بالماءِ، وإذا بالخيْلِ تتزاحمُ عَليها فصرخَ فيها..

- كيفَ هَذا الهرجُ والمَرج أمامَ شقيقى الأكبر كليب.. كفَى!

كَان صَوْته مُدوِّيًا، فـاهتزتْ لَـهُ الخيـلُ، وفضّـت الاشـتباك.. وهُنـا أدرك كليب أنه غيرُ قادر عَلى أنْ يُسيءَ لأخيه، وعَادَ إلى جَليلة يُثْنِـى عليه ويُعلِنَ عنْ إعْجابه به وتقدِيره لَه، فقالت متظاهرةً بالفرح..

- أحْسنت.. لو قلت غـير هَـذا لما أحببتـك واحـترمتُك يـا زوجـى العَزيز..

.. لقد كنتُ أختبرُ صدْقَ وفَائِك!

أحسَّت جَليلة بشوق غَامر إلى أبيها.. الأمرُ لَمْ يَكنْ فى الحقيقةِ مُجرد شوْقِ ابنة لأبيهَا، لكنهَا كَانت ترُيدُ أنْ تَطرحَ عَليه سُؤالاً واحدًا:

- هلْ يُمكنُ للإنسانِ أنْ يَتحولَ فى مَشاعرِهِ إلى النقيضِ؟!..

أجابَهَا أبوهَا: نَعم..

قَالت: أشعرُ أنى أصبحتُ (شريرةً)!

ضَحكَ مُرة، وقَالَ: لا يَحدثُ هَذا بين عشيَّةٍ وضُحَاها!

- أعرفُ..

- عِندمَا يَأملُ الإنسانَ خيرا، ولا يَجدُ غيرَ الشوكِ والشر يبدأ فى التحول..

- صدقْتَ يا أبى..

- وليس يا ابنتى مَا هُوَ أفظع أثرًا مِنَ الطُّغْيَانِ!

سكَتت..

كأنما كانَ الشـيخُ يُقرأ أفكارَهَا ويُفسرُ لها تَصرفَـها، وكـادَت أنْ تسألهُ..

– كيف يَعودُ المرءُ إلى دُنيا الخيرِ، يا أبى؟

سيجيب: عِندمَا تزَولُ أسبابُ التحول..

ورأت أن تُوفرَ عَليه الضيق، فهى تَعلمُ كم يُعانى مِـنْ زوجِـها، ابـن أخيه.. فغادَرت عائدةً إلى قصرِهَا..

وعِندمَـا دَلَفَـتْ إلى حُجرتِـها لمحَـت صُورَتـها فـى المـرآةِ، فتوقفَـت عِندهَا، ورَاحَت تُحملقُ فيها وتَتسَاءلُ:

– أهَذِه أنا؟ أهذِه جَليلةَ؟! ما الَّذِى جَعَلـك عَلـى هَـذِه الصُّورةِ؟!.. إنى أرى إنسَانةً أخرَى..

وألقت بنفْسِها إلى الفِراشِ، ورَاحت تَبكى.. وتقولُ لنفسِها:

– أبى فَسَّر لى كُلَّ خـير.. هَـذا هُـوَ مَـا يَفعلُـه الطغيـانُ فـى نفـوسِ الناسِ.. يبدِّلُها ويغيرُها.. هاأنذا، أحَرضُ زَوجى عَلَى أخيه، منْ أجلِ أخِى.. مَا كنت أتصورُ أنْ يَصـلَ بـى السـوءُ إلى هَـذَا الحـدِ، وإلى هـذه الدرجةِ، كنتُ أريدُ أنْ أحْيَا حيَاةً هادئةً آمنةً يَسـودُها السلامُ، وفجـأةً أجدنى مِنْ أجل تحريرِ نَفسى أسْعَى بهذه الوقيعةِ الذميمةِ، لكـن مَـاذا بيدِك يا جليلـة لكـى تَخرجـى مـن هَـذا السـجنِ، وحَتَّـى يُمكنـك أنْ تَلتقطى أنفاسَك؟!

كَانَ أشدُ مَا يخيفهُا ويَرعبُهَا عودةُ كُلَيْب منَ الحربِ أم مِنَ الصيدِ، فلا شيءِ غيرهمَا.. مَعَ كلِ صباحٍ يمْتطِي حصَانه، ويَحمل سلاحه، ويَمضِي، يُطاردُ البشر أو الحيوَانَات، يَعملُ فِي هؤلاء وأولئكَ حرَابه وسيُوفَه وخنَاجِره، ويعودُ بها ملطخةً بالدِماءِ.. ولكم هِي آسفةً، لأنها تمنت لَوْ أنه يومًا ما عَادَ بسيْفه تَقطرُ منه دمَاءُ أخيه الزير سالم!

وسَألت نَفسَها فِي حدَّةٍ وقَسْوة..

– متى أَقتلعُ مِنْ رأسِي هَذِهِ الفكرةُ الحمقَاءَ؟ ومتى أتخلصُ منْ مشاعر الحقد والضغينة عَلَى الزير؟

لماذا أجْرى وراءَ كلماتٍ قد تكونُ كاذبةً، يُفضي بها إليّ كاهِنْ يَضربُ الودَعَ، أو امرأة تَقرأ الرمَالَ؟!..

ودَخلت عليها واحدةٌ مِنَ الوَصِيفَاتِ تَحكي لها بعضَ ما ارتكبَه زوجُهَا منْ فظائعَ جديدةٍ، وجَرائمَ يَشيبُ لهوْلها الولدانُ، فرفعت كفَّيْهَا إلى السَّماءِ تَسألُها الرحمةَ، وتطَلبُ منها النجدةَ.. إنها كلَّمَا تراجعَت عن رغبتها الآثمةِ فِي ارتكابِ الشر، وجدت ما يدْفعُها إليه دفعًا، حتى لتجد نفسَهَا وقد امتلأت بُغْضًا لكلِّ ما حوْلها، وشعرتْ بأنها أضْعَف مِنْ أنْ تقاومَ الشرَ.. وكرهت كُلَّ شَيْءٍ!

مَا عادت جَليلةُ قادِرة عَلى احتمال الحياةِ، أو احتمال وجُود كليب أو أخِيه الزير، الَّذى لا تريدُه سالما، بل تتطلعُ إلى أنْ تراهُ حُطامًا.

وهربت منْ كلٍّ ذلِك الذى تُعانيه إلى النوم.. لكنَّ النومَ لمْ يكن أكـثر راحةَ لها مِنَ اليقظـةِ؛ إذ أنَّ أحلامًا مُزعِجةً مقلقَةً هاجمتها بشكل قاسٍ وعنيف.. وقضتْ مضجعَها!

- ١٤ -

مضَت الأيامُ، بطيئةً مُتكاسِلَة، بلْ ومملَّةً، ولم يكنْ لَدَى جليلة مِنْ تَفكيرِ غيرَ التخلص منَ الزير سالم الَّذى امتلأ قلبُها حقدًا عَليْه، وضِيقًا مِنه، إذ هُوَ يَخرجُ من كلِّ مؤامرةٍ تنسجها لَـهُ كالشعرةِ مـنَ العجـين، وأخيرا خَطَرَ ببالها أمرٌ جديدٌ، اتجهت بـه إلى زوجـهَا كليـب، قائلـةً في استعطَاف، وهي تتظَاهرُ بالمرضِ:

- تَعرف أنى مريضة، والأطباء وصَفوا لى شيئًا لا يقدرُ على أنْ يأتى به أحدٌ غيرُ أخيك قائد الفرسان وكبير الأبطال..

- أىُّ شيء هو؟

- أريدُ كوبًا مِنْ حليب زوجةِ الأسدِ، يُشفينى مِنْ دَائـى، العُضَـال، ويُساعدُنى على أن أنجبَ لَكَ وَريثًا للعرشِ.

كَانَ كليب يديرُ كلماتها في رأسِـهِ، وهُـوَ يُدركَ تمامًـا أنّـه يملـكُ الكثير مِنَ المال، والسلْطةِ، والأرْض، والمـزارع، والحدائـق، والقصـور، وأيضا العبيدَ، وليسَ لديه طِفْل، هُوَ أغلى مـنْ كـلِّ هَـذا، ولـيرثَ كُـلَّ ذلِك.. وإذا ما كَانَ فى استطاعة أخيه أنْ يُسَاعدَه على إنجـابِ طفـل، فلمَاذا لا يَسألُه المعُونةَ، وتحقيق طَلَبِ جليلةِ الجميلة؟.. قَالَ لهَا:

– سَوفَ آمره بأنْ يَأتيك بما ترْغبين فيه..

استدْعى كليب إليه أخَاه الزيرَ سالم، وقدمَ لهُ إناء، وقال:

– خُذ هَذَا الإناءَ، إلى الغَابة، وامْلأه بحليب زوجةِ السبعِ..

إنه الدوَاء لزوجتى جليلة.

قال الزيرُ سالم: حُبًّا وكَرامةً.. فقط أريدُ دِرعًا وسيفًا وبعضَ الفرسَان.

سمَعت ذلك جَليلة، وهى فى فراشِها مُدعية المرضَ، فرفعت صوتَها قائلة:

– درعٌ، وسيفٌ، وفرسَان؟ ومَاذا ستفعل أنت؟

ردَّ عليها الزيرُ سالم: إننى منْ أجل أخى، أذهبُ بدُون سلاَح.

ومضَى فى جَيْبه سِكينهُ الصَّغيرُ، وفى يدِه عَصَاه، وانطلقَ عَلَى الفور إلى الغابةِ، واختار مكانًا كثيفَ الأشجار فى وادِى السباع، وكمنَ فى صمْتٍ وهدُوءٍ.. إن هى إلا لحظات، وسَمعَ زئير أسدٍ قَادِم، كان يهز الدنيا مِنْ حوْلِه، فقامَ له الزيرُ سالم، وقبضَ عَلَى ذِيْله بيمنَاه، وتَركَ عصَاه، وأطبق بيسْراه علَى الذيْل، ورَاح يُطوح الأسَد فى الهواءِ، ويديرُه بينَ يدَيْهِ، وكأنه لعْبة، إلَى أنْ دَارت رأسُ المسكين، وزَئيره يصلُ عنانَ السَّماءُ، ثم هَوى به مِنْ فوْق صَخْرةٍ، وإذا بصَوْت تحطيم جُمجُمته وطقْطقة عظَامه، يعلُو.. ويسودُ صمتٌ وهدُوءٌ شامليْن، ونفض البطلُ يديه، والتقطَ عصَاه. وجلسَ مُسْندًا ظهرَه إلى شجرةٍ شامخةٍ،

ينتظرُهَا.. إذْ كَانَ على يقين مِنْ أنَّ زوجَـة الأسـد سـتأتِى بعْـدَ قليـل، وجاءَت.. ومن حولهَا أشـبالُها السَّبْعة، ورأت زوجَـها الأسَـدَ صريعًـا طريحًا، فنظـرت إلى الزير ســالم والشر والشـررُ يتَطـايرُ مـنْ عَينيـها.. ومَا كان منه إلاَّ أنْ قَفزَ عَاليـا، وتعلـقَ بغصْـن شـجرةٍ، اعتلاَهـا، وراحَ يرقُبها، وأشـبالها يرضِعـون منـها، غـير مُدركَـين مـا جَـرى لأبيـهم.. وفوجئت الأمُّ به، يَقفزُ عليها مِنْ فوْقِ الشجرة، ويستوى علـى ظـهْرها كأنها حمار أو بغْل، وفى يدِه الإناء الذى أعطاهُ إيَّاه أخوه كُليْب..

قَبضَ الزيرُ سالم بيدهِ عَلى عُنقِـهَا، ولـفَّ سَاقيه مـنْ حولهَـا، فلـمْ تَستَطع الحركةَ، واليـدُ الأخـرى حاملـة الإنـاء وضَعَـه تحـت ضَرْعـها وضغطَ عليه ليمتلئ الإنــاءُ بالحليب.. ثـم قادهـا مـن رقبتـها، فـالتقطَ بسـرعةٍ رأس زوجـهَا الأسـد الصريـع، ومضـى ومـن ورائـــه الأشـــبال السَّبعة، تسيرُ خلف أمهَا بهدوءٍ، كأنَّ كلاًّ منها جروٌ صغيرٌ، وعَـاد إلى المدينة.. وتدفقت الجماهيرُ إلى الشوارعِ والطرقاتِ لترى منظرًا لم يَسـعدْ إنسان برؤيته منْ قبلُ ولا منْ بعدُ.. وراحُوا يُصفقُـون لـه ويـهْتفونَ، إذ كان ما يرونه غريبا بحق: رجل يركب زوجةَ الأسدِ، ويضَـعُ فـى يـده إناءَ الحليب ويــدَه الأخـرى يسـند رأس زوجـها الأسـد، ويحيـط بـه أشبالهما السبعة..

كَانت جَليلةُ وكليـب قـد سمعَـا ضجـة النـاس، فـأطلا مـنَ النـافذة ليشاركوهم فى رؤيةِ هـذا المشـهدِ العجيـب، وسارعا يَـنزلان إلى بـابِ

القصر ليستقبلاه.. جليلة، وقلبها يَغلى سخطًا عليه لأنــه لم ينـجُ فقـط منَ المؤامرة، بل لأنه أتى عمــلاً بُطوليـا خَارقًـا أذهـلَ الجميـع، وكـان أخوه كليب سعيدا به راضيا عنه إذ حقـق لجليلـة الجميلـة مـا تصبُـو إليه وترغـبُ فيـه.. هَـذا الّذى سَيجعلهَا تنجـبُ وَلِىَّ العـهْد، ووَارثَ العرش.. لقد استقبَلا الزيرَ فى حَفـاوةٍ كبيرةٍ وقدْمـوا له التهنئـةَ عَلَـى مَا قَـام بـــه.. وشــكرهما البطـلُ المتواضـع، ولم يغادرهمـا إلى وحدتـه إلا بعد أن نَصحَ أخاه قائلاً:

– عليك.. ألا تستمعَ إلى قولِ الأعـداءِ، ولا تـأمن شـرهُم وكيدهُم.. خاصةً إنَّ كيدهُنَّ عَظِيم!



رجعت جليلةُ، وكليب إلى القصر، ومعهما إناءُ الحليب، بينما اقتادَ الحراسُ زوجة السبُع، وأشبالها السبعة.. وقبل أن ينطق كليب بكلمةٍ واحدةٍ يشيدُ بما فعلهُ أخوه، فوجئ بجليلةٍ تقولُ في ثورةٍ وغضبٍ شديدين..

- هل سمعتَ؟ أن أخاك يُعرِّضُ بي.. وهو يعنيني بقوله إنّ كيدهُن عظيم! إنّ هذا الفاسد الفاسق يستحقُ منك أقصى عُقوبة..

قال كليبٌ يهدىء من ثورتها: لا تهتمي بكلامه، فهْو صغيرُ السّن. ولا أظنني قادرا على ردِّ جميله لأنه أتى بالحليب. وإذا بي أسيءُ إليه وأعاتبه على كلمةٍ شاردةٍ صدرت عنه..

إنها ليست كلمةً شاردةً، بل هو يعني كلَّ حرفٍ منها. ولن أشرب ما أتى به من حليبٍ إلاّ إذا وعدْتني بأنْ تنالَ منه بسبب إساءته لي..

وعدها كليب بأن يُحقق لها كل ما تريدُ، قالت:

- إني أرى أن ترقد في فراشك متمارضًا، ونستدعيه إلينا. من أجل أنْ يأتي لك بشيءٍ من الماء منْ بئر السباع.. لأن ذلك هو الذي سوف يشفيك منْ مرضك!



وافق كليب على اقتراحها، وبعد فترةٍ قصيرة، قام بتمثيل دوْر المريض، وراح يتقلبُ في سريره، صارخًا مُتألمًا.. واستدعوا له أخاهُ الزير سالم، فسأله أنْ يأتيه بشربة ماءٍ مِنْ بئر السباع!

انطلق الزير سالم ليأتي بحمار يضعُ فوق ظهْره قربتيْن فارغيْن وقاد الحمارَ إلى البئر وهُو يستعيدُ في رأسه تلك المطالبَ المتكررة الغريبة ويتساءلُ عمن وراءها، لكن ذهْنه لم يتَّجه قط إلى جَليلة. فما تصورَ قط أنها على صلةٍ به، إذ كانَ يَحسنُ الظن بها. وعندما وصل ربَط حمارهُ إلى شجرةٍ، ونزل إلى البئر حاملاً القربتيْن..

وفجأةً، وعلى حين غفلة ارتفعَ نهيقُ الحمار، الأمرُ الَّذي دُهش له الزيرُ سالم، ولمْ يأبه له كثيرا، وكانَ الذي حدث أنَّ الحمارَ لمح عنْ قربٍ أسدًا نائمًا، وشعرَ بالخوْف وأطلقَ نهيقَه، فأيقظ الأسدَ.. وكأنما حفر بغبائه لنفْسه قبْرا، إذ اتجه الأسدُ نحوه، وافْترسَه في يسرٍ وسُهُولة.

انتهى الزيرُ سالم من مهمته في قاع البئر، وصَعَد إلى السطح ليرى ذلكَ المشهدَ الرهيبَ. فغضب بشدةٍ لاعتداءِ الأسدِ على حماره، وأمسكَ بعصاهُ وهوى بها فوقَ رأس الحيوان المعتدِي، وإذا به يسقطُ مغشيا عليه، وحمل الزيرُ سالم (برْدعة) الحمار ووضعها فوق ظهر الأسدِ بعد أن أفاقَ قليلا، ووضع القربتين على جانبيه وركبه، وساقه كما يُسوقُ الحمارَ عائدًا به إلى أخيه: كليب، وكان الأسدُ كلما تباطأ في سيْره ضربه الزيرُ سالم بعصاه قائلا:

– لقدْ أكلتَ حمَارى، ولم يكُن أمامى غيرَ أنْ أجعلَ منكَ حمارا!

استقبلَ كليب شـقيقه أحسـنَ اسـتقبال، وقـدّر لـه كـلُّ التقديـر مـا صَنعه، وجاءَت جليلةِ بأكواب الماءِ التى أتّى بـهَا الزيـرُ سـالم لتسْـقى زوجَـها، وهـى فـى منتـهى الضيـق، لأنَّ الأسُـودَ لم تفـترسْ هَـذا الأخَ الصِّنْديد، وكأنَّ الأقدارَ تحفظُ عليه حياته من أجل تحقيق النبوءة الّتى تَقولُ إنه سَوفَ يَنتقم لمصرعِ كليـب وهـى تريـد أنْ تتخلـصَ مِـنَ الزيـرِ سالم، قبل أن تتخلصَ منْ كليب!

لقد جلسَ كليب إلى أخيهِ، بعدَ تَعـاطى مـاء البـئر كـدوَاء، واقـترحَ عَلَى أخيه أنْ يمسِكَ بعصَا الحكْم، وأن يخلفَه عَلَى العـرْش، إذْ ضـاقَ كليب بعدَاءِ الناسِ له، وتآمرهم عليه، خاصّة وقَد وصلـتْ إلى مسَـامعه تلكَ الفِرَق التى يجمعها جسـاس شقيقُ زوجتـه جليلـة، ويدرّبـها علـى القتال، ويتسـاءَل:

لمن يعدُّهَا؟.. ثُم مَنْ هِيَ هذِه المرأة (سعاد) التى لا يعرف أحـدُ لهـا أصْلا، ومع ذلك يَحميها جساس ويْحمِى ناقتها، ويَسمحُ لهـذه الناقـة أن تَشَاركَ قطيعَه مراعيه؟ إنه لمْ يرفَـع صوْتـه بـهذه التسَـاؤُلات، ولم يضعْها أمامَ أخيه الزير سـالم، لكنَّـه راحَ يعـرضُ عليـه مـنْ جدِيـد أنْ يحملَ عنه عِبْء الحكْم، قال له الزير:

– ها أنت قد رأيتَ أننى لم أطقْ عدوانَ الأسدَ علـى حمـارى، فمـا بالك لوْ أنَّ أحدًا حاولَ أن يُسىء إليك؟!.. إننى لا أريدُ الحكمَ، وكـل

ما أسألك إيّاه أن تَمْنَحَنِى تلكَ الأرض التى يسميها الناسُ وادِى السباع، وسأطهرها من هذه الحيوانات المفترسَة، وأبنى فيها بيتًا أعيشُ فيه ويشاركنى فيه فيه شقيقُ زوْجَتك.. وسأبنى البيت من جماجم الأسود..

قَالَ كليب: لَكَ هذا..

كَانَ نجمُ جساسٍ يَعلُو، وكُلما ثـارَ كُليب وأعلـن عـنْ غضبـهِ عليـه حَاولت جليلة أنْ تخففَ منْ مشـاعرِ البُغـضِ التـى يَحملـها لأخيـها، وتؤكدُ إخلاصَه لهما، كما هوَّنت منْ أمرِ (سـعاد)، فمـا كـانت تَعـرفُ أنها أخـت حسَّان اليمـانى، وتصـوَّرت أنـها امـرأة تُحسـنُ اسـتخدامَ مواهِبهَا فى الكلامِ، والحديثِ، وفى قوْل الشعر.. لكـن الـزوج أرادَ أنْ يكسرَ شوكةَ جسَّاسٍ، وأنْ يَقضى عَلَى نفوذِ هذِه المرأة التى تسيرُ بيْـنَ الناسِ بما يُسىء إليه، فأمرَ كليـب واحـدًا مِـنْ غِلمانِـه أن يقتـلَ تلـكَ الناقَةِ التى اسمها (الباسُوس) ولم يكنْ يَدرى أنّـه بذلـكَ سَـوفَ يَشـعلُ حربًا ضارية.. والحربُ حين تبدأ، لا أحد يَستطيعُ أنْ يعرفَ متـى، ولا كيف تنتهى..

وعِندمَا عَلَم جسَّاسُ بنُ مرة بمصرعِ الناقةِ أعْلَـن عَـنْ غَضبِـهِ وجَمـعَ الشبابَ مِنْ حَولِه، وقَالَ لهم..

أرأيتم ما فَعله كليبُ؟!.. لقدْ سكتنا عَلى استبدَادِه ومظالمـه طويـلاً، ولم نُرفع رايةَ العصْيانِ فى وجهه، لكن هَاهو يَعتدِى علـى ناقـةِ امـرأةٍ مَسكينةٍ لجأت إلينا لنَحميها.. ولقد حَاولت مع شقيقتى أن نصَلحَ مـن

اعوجاجِ هذا الحاكم غَيرَ أننا فشلْنا فشلاً تاما، لأنه يصر علَى أنْ يأخذَ لنفسِه كلَّ شيءٍ، ويجبُ علينا أنْ نُوقفه عِندَ حَدِّهِ!

عَلِمَ مُرَّةُ (الشيخ العجوزُ) الطيبُ المسالم بما حدَث، وكان مِنْ رأيه أنْ يبعثَ جساس ابنه برسالةٍ إلى كُلَيْب زوج أخته ليعَاتبه عَلَى مَا فعلَ، ويسألَه الاعتذارَ عما وقعَ منه، وَيطلبَ منه وعدًا قاطعًا بألاَّ يَعودَ إليه أوْ يكرره..

استجابَ جسَّاس لنصيحة أبيه، وكَتبَ الرسالةَ، وقرأهَا عَلَى أبيه، وعَلَى الناس المحيطين به، فأقروهَا، واستدْعى واحدًا مِنْ رجَاله ليحملَها إلى كليب..

مَضَى حاملُ الرسالةِ فى طريقه إلى قصر كليب.. لكن واحدًا مِنَ رجال سُعاد كَانَ يَترصدُه، ويَنتظِرُه، واستطاعَ أنْ يخدَعَه، ويسلبَه الرسالَةَ، ويَضعُ أخرى، مَليئةً بالشتائمِ والسباب..

قرأ كليب الرسَالَةَ، واستشاطَ غضَبا، ومزَّقها، وصفعَ حاملَ الرسالةِ، وطردَه منْ حضْرته.. ونادَى إليه جليلة صارخًا:

- اسمعى ما يقولُه عنى أخُوك جسَّاس.. هل بلغَت به الوقاحةُ أنْ يتمادَى إلى هذا الحد؟ كيف يجرُؤُ على أنْ يُسيءَ إلى زوجِ شقيقته وشيخِ قبيلته وملكِ بلاَده؟! هل كُلُّ ذلِكَ لمجردِ أنَّ واحدًا مِنْ أتباعى ذَبحَ تلك الناقة العجفاء؟ ما قيمتها وصاحبتها التى لا يدرى منْ أىِّ بلاَد الله هبَطت عَلْينا.. والله لأعاقبنك يا جسَّاس عقابًا رهيبًا..

كانت الكلماتُ تنطلقُ منه مثلُ قذائفِ الحِمَم والنار التى تُلقى بالبراكين حين تثُور، ولمْ تستطعْ جَلِيلة أن تُوقفَ السيلَ العرِم المنهمرَ منْ صرخَاتِ زوجها، وكل ما فَعلته أن رَاحت تَربتُ عَلَى كتفِهِ عَلَى أملِ أنْ يهدأ.. وهمسَت:

– ما رأيكَ فى أن تسترضى هذِه المرأةَ وتعوِّضَهَا عنْ نَاقتِها؟

– فلتأخُذْ عشرةَ جمالٍ مقَابل ناقتِها!

– إذا رضِيت وهَدَأت ربما استطعْنا أن نتفَاهَم..

– أى تفَاهُمٍ بعدَ هذَا السبابِ الذى وصلَنى منْ أخيك؟

ربما استطعْت أنْ أعينَك عَلَى هذَا الأمْر..

كيفَ؟! إنِّى أراكَ فى صفِ أخيك أكْثر مما أنت فى صفى.

فى مِثْلِ هذِه الظروفِ انحيازى لطرفٍ دُونَ الآخرَ يزيدُ الأمورَ تعقيدًا..

إذنْ، حَاولى مع هَذِه المرأةِ.. ومعَ أخيك.. لم تكنْ جليلَة فى واقعِ الأمرِ محايدَة، وكانَتْ بالفعْلِ قدْ نبذَت الحيَاد، وصَارت إلى جانب أخيها قلبًا وقَالبًا.. لكنَّ ذلك لمْ يحلْ بينها وبيْنَ المحاوَلة، لأنَ النار إذا اشتعَلَت فلَن تَجدَ مَنْ يُطْفِؤُهَا.. لذلك بعثت للعجوز سعاد تسألها أن تقبلَ قطيعًا مِنَ الجمال مقابل ناقتها العجْفاء، وانتهزت سعادُ الفرصةَ لكى تولْولَ على ناقتها، حفيدة ناقةِ النبى صالح!!، كما

ادَّعت، ورفضت، وأبتْ إلاَّ أنْ يقتصَّ جسّاس حاميها وراعيها لما وقَعَ عليها منْ ظلْم.. وهى لن ترتاحَ فى قرارة نفسها إلا إذا انتقمت من كُليب قاتل ناقتها، وقاتل أخيها حسَّان اليمانى..

واشتدَّ الصراعُ واستفْحل الأمرُ.

عَادَ حاملُ رسالةِ جسَّاس إليــه يَحكـى كيـفَ قَابلَـه كُليـب وكيـفَ أهانَه، وانهالَ عَليْه ضربًا وركْلاً فورَ اطلاَعه عَلَى الرسـالة.. والمسـكين لمْ يكنْ يَعرفُ أنَه قدْ خُدعَ منْ قبلِ (سُعاد)، وأنَ الرسَالةَ التى حَملها لم تكنْ هِى الَّتى بَعَثَ بها جسَّاس.. وقد غَضَبَ جسَّاس غَضبًا شديدًا، فَقَد مدَّ يدَه بالسلامِ، والوئامِ كما نَصحهُ أبُوه، لكنَّ ابنَ عمه رَفضَ هذه اليد، وكَانَ صوتُ ولولة سعاد يصـلُ إلى أذنيْـه، وشـقَّ عليْـه كثـيرًا أنْ تنخرطَ فى البكاءِ إلى هـذا الحـدِّ، ثـمَّ هَـاهُم أتباعـه وأصحَابـه يَغرونـه بالتخلُّص منْ هَذا الملكِ المستبدِّ الظَّالم.. خاصةً وقد ضاقت أخْتُـه بـهذا الزوْجِ المُتَعجرف، ومَا كـانت تُريـدُ أنْ تسـتبقيَه لـولا خشـيتها مِـنْ أن ينتقمَ لَه شقيقَه الزيرُ سـالم، وقَـد حَـاولت بشـتى السُّبل أنْ تَتخلَـصَ منه، وفشلَت..

هلْ منْ سبيل يا الله لكى تهدَأ الأمُورُ؟ وهلْ منَ المكـن أنْ يتسـبُب مقتل هذه الناقةِ البسُوس فى حربٍ تَأكلُ الأخضرَ واليابسَ؟!..

لقدْ وقعَت الفتنةَ ومَا مِنْ وسيلةٍ لتهدئةِ الأمور، فمَا كانَ منــها إلا أنْ لجأتْ إلى أبيـها (مُرة) وإلى (بنـى مـرة) تَلـوذُ بـهمْ.. لأنـها أصبحـت مهددة بالقتلِ منْ جَانبِ زوجِها..

أمَّا جسَّاس فلم يَجدْ أمامَه سَبيلاً غير قتال كُليب الذى اعتدى عَلَى حماه، وقَتلَ الناقةِ.. إنها لم تَعُد مجردَ ناقةٍ بل هى (الشرف) الَّذى يَجبُ أنْ يذودَ عنْه ليسلم، والطريقُ الوحيدُ لذلك هُوَ أنْ يُراقَ عَلَى جَوانبِهِ الدَّم.. وتقدمَ جساس، ومعَه فتيانه الأشداء، فحملوا عَلَى قصر كليب، ونحيب سعاد يَملأ الآفاق مِنْ حوْلهم.. وقامُوا قومةَ رجل واحدٍ باقتحام قصر كليب، وقتلُوه، وأضرمُوا النَّار - الَّتى فى قلوبهم - فى القصر وكل مَا فيه.. فانتفضَ بنُو ربيعة - آل كليب - وانقضُّوا عَلَى بنى مُرة فى حربِ البسُوس الَّتى صَارت فى التاريخِ دليلاً لسُوءِ التقدير.

عاشت جليلة فى كَنَفِ أبيها بعدَ مصرعِ زوجَها، وبعد أن اندلَعت الحربُ ضروسًا، لا تُبْقى ولا تـذر.. بينما دَخلَ شقيقُها جساس إلى القتال ضد الزيرِ سالم الذى طارَ صوَابُه عِندمَا فقدَ أخَاه كليب..

استمرَّت هذِه الحَربُ التى حملت اسم (البسُوس) - الناقة العجفاء، ذات الرائحة المعطرة بالمسْك والصندل - وظلت هذه الحربُ مُشتعلة أربعينَ عامًا.. عَامًا بعدَ آخر، وكثيرا ما نَسِى المقاتلُون كيفَ بدأ القتالُ، ونسوا جليلة بنت مرة، وأباها مرة، ولم يعُد الجانب الآخر يتحدثُ عنْ كليبٍ وربيعة، وإنما يَندفعُ كل طرفٍ للحربِ دون أن يَسألَ أو يَتساءَلَ: لماذا هى؟!.. وهل نستطيعُ أنْ ننفضَ أيْدينَا مِنْها، وأنْ يشيع السلامَ والوئام فيما بيننا؟

وحَاولَ العربُ أنْ يدافعُوا عنْ أنفسهم قائلين: إنها كانت حرْبا من أجل الذُّوْدِ عَنِ الشرف والحمى..

وكانت جليلة فى أواخر أيامها تنوحُ وتَبكى، وتَشربُ دُموعَها، وهى تقولُ:

الغدر والخيانة والخديعة والحرب، نيران تحرق الأعواد، لكنها تنقلبُ على مُشعِليها فتحرقهُم ويصيرون وقودًا لها..

ويسكتُ راوى سيرة الزير سالم فى صرَاعه مع جسَّاس.. ويتنهدُ مِنْ أعماقِ قلْبه، والقوسُ يَجرى عَلَى الربابة، ويَنشدُ:

– هل كتب عَلَى العرب أنْ يصبحُوا دَائما: بنى مرة، وبنى ربيعة؟!.. وتشتعلُ النيرانُ بْينَ الجيرَان، والأهْل – كُلَّ يوم – من أجْلَ باسوس جديدة.. أما آن لنا نحنُ العربَ أنْ نقرَّ ونعترفَ بأن السلامَ والوئام يَجبُ أنْ يحلا مكانَ الحربِ والخصامِ، وإلا نلْنا ما نَالُوه منْ دمَار وحطامٍ.

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٧٤٧٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6297-8

٧/٢٠٠١/١٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)